

# احمد عبد الله رزة

## أوراق سياسية

في ذكرى احمد عبد الله

الدولة والإسلاميين، من التأمير إلى المواجهة

مصر قبل وبعد 11 سبتمبر 2001: مشاكل التحول السياسي في وضع دولي معقد

قضية الأجيال، تحدي الشباب المصري عبر قرنين

ترجمة وعرض: احمد زكي احمد

## في ذكرى احمد عبد الله رزة

روجر أوين

### الأهرام ويكلي

توفي أستاذ العلوم السياسية والناشط السياسي احمد عبدالله في ٢٠٠٦. هذه محاضرة الاستاذ الدكتور روجر اوين في جامعة القاهرة التي ألقاها في الذكرى السنوية الأولى لوفاته. دعا أوين في محاضرتة إلى تأسيس سُنَّة إلقاء محاضرة سنوية بجامعة القاهرة في ذكراه ولكن الدعوة لم تلق آذانا صاغية. بنشر الأهرام ويكلي لهذه المحاضرة غير المنشورة، فهي تُجدد الدعوة مرة أخرى إلى تحقيق ذلك. "الأهرام ويكلي أون لاين"

نجتمع معا لنتذكر - ونكرّم - حياة وأعمال صديقنا العزيز الطيب احمد عبد الله وموته قبل الأوان، ولنتحدث سويا عن الطريقة التي نؤسس بها سُنَّة إلقاء محاضرة سنوية بجامعة القاهرة في ذكراه.

في هذه اللحظة تقبع ذكراه في قلوب أولئك الذين أحبوه وقلوب العديد من الشباب الذين دعمهم بمساعداته من خلال مركز الجيل للدراسات الاجتماعية والشبابية.

ولكنه سوف يكون من الرائع أيضا لو استطعنا تأسيس شيئا ما أكثر استدامة، شيء ما يُذكر الناس بما ناضل احمد عبد الله من اجله: قلب مصر الدافئ، احساسه بمجتمعه، مسؤوليته الاجتماعية، افتخاره ببلاده، وعدم قناعتة بالموهبة المتوسطة وفوق كل شيء، رغبته في إيجاد سبل توفر كل الفرص المُحتملة لشعبه.

التقيت بأحمد عبد الله لأول مرة في أكسفورد في وقت ما من الأوقات عام ١٩٧٤. جاء لي كما كان يفعل العديد من شباب الطلاب العرب في تلك الأيام بحثا عن مساعدتي لدخول احد الجامعات البريطانية، وكنت بالطبع أسعد بمد يد العون لهم وكانت سعادتني هائلة عندما قبلوه في جامعة كمبردج.

اتذكر شابا طويلا مبتسما ذا كاريزما من الميسور ان تخمنه زعيما طلابيا، يقف على رأس مظاهراتهم ويمتلك ناصية الكلام في مناقشاته مع وزراء وكبار مسؤولي الرئيس أنور السادات، رغم أزيائهم الرسمية الفاخرة وملاحمهم المتجهمة الغليظة.

واستطيع ان اتذكر ايضا - كما يجب عليكم كلكم هنا ان تتذكروا - مزاج تلك الأيام في القاهرة: عام "الضباب"، سنة المظاهرات والاضرابات والاعتصامات التالية. أيضا، يجب ان اقول أنني شخصا شاهدت ما كان يدور في جامعات

أترجمة احمد زكي احمد

أ روجر أوين: استاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة هارفارد

مصر من أحداث بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٣ من خلال عدسة الحركة الطلابية العالمية في تلك السنوات، في باريس، وبشكل أكثر في أمريكا التي بدأت بالمظاهرات المناهضة لحرب فيتنام من جامعة ويسكونسن بماديسون، وفيما بعد بشكل أكثر درامية في ولاية كنت ومن ثم في العديد من الجامعات البريطانية بما فيها أكسفورد عندما كنت اعمل هناك عندئذ بالتدريس - تلك المظاهرات التي كانت كما كان الأمر دائما مظاهرات وطنية الطابع وتمتجج بها بشكل أكثر خصوصية القضايا الطلابية.

كما يجب أيضا القول أن مدرس شاب مثلي رغم ترحيبه من عدة أوجه بهذه الأحداث إلا أن هذه الأحداث قد فرضت مشكلة خاصة ترتبط بالمدى الذي تمضي إليه ولاءاتنا المؤسسية والسياسية؛ محاولة دعم الطلاب كلما أمكن ذلك ولكن الأمر يصبح حرجا مع بعض التكتيكات التي يتبعها الطلاب مما يجعلنا نقف على حذر من بعض محاولاتهم لإشراكنا فيها بطريقة تجعلنا أسرى أجندتهم بدلا من أجندتنا نحن. قال احمد عبدالله شيئا عن هذا في كتابه عن الحركة الطلابية المصرية في تلك الأزمان، ولكن من غير المدهش ان تجده يحاكم سلوك كليته بمعايير الموقف الذي اتخذه الأفراد مع أو ضد إدارة الجامعة.

أخذت معرفتي بأحمد عبدالله تتوطد بمرور السنين، في إنجلترا وفي القاهرة وفيما بعد خلال زيارته المنتظمة لأمريكا. كان دائما معاونا بشكل مدهش، لم يكن أكثر عونا منه في المؤتمر الذي نظمته جامعة هارفارد والجامعة الأمريكية بالقاهرة أوائل عام ١٩٩٣، حيث حاولنا من خلاله الاتصال بطلبة مصريين من جامعات أخرى بالقاهرة لتشجيعهم على استخدام أساليب العلم الاجتماعي لإعادة هيكلة أبحاثهم في الجوانب المتنوعة للمجتمع المدني المصري ولتخطيط السبل التي قد تستطيع من خلالها الجامعات الأمريكية المساعدة في تعظيم مكتباتها العجاف ومراجعتها ومصادرنا بلغات اجنبية متعددة. تحمّل احمد بشكل او بآخر مسؤولية ذلك كله، حتى ان كل واحد من الحضور قد شعر أنه في بيته ومكانه، وغير اللغة المستخدمة في المؤتمر من الانجليزية الى العربية وتصرف من جميع النواحي بطريقة ودودة وكفاء كمحترف متمكن في فن إدارة المراسم - إضافة إلى تحريره للمجموعة النهائية لأوراق المؤتمر.

أيضا كان احمد كما هو متوقع دائما هو نفسه: يدخل الغرفة - كنسمة هواء منعشة، يمنحك روايات مرحة صادمة ذات مغزى عميق عن وطنه، ونكات وكل شيء - روايات متفائلة بعد العودة الظاهرة للحياة الحزبية المتعددة في الثمانينات، ثم أخذ يكسوها التشاعوم بشكل متزايد طوال التسعينات.

ترى جيدا الكثير من ذلك في تقرير قصير كتبه أحمد عبد الله لمنشورات جامعة امستردام في ١٩٩٥ يتعلق بالانتخابات البرلمانية التي سوف تتعقد سنتها - واضعا عنوانه بطريقته التحريضية المُميّزة: "الانتخابات البرلمانية في مصر: اي انتخابات؟ وأي برلمان؟ وأي مصر؟" ثلاث أسئلة محورية تظل متصلة بيومنا الحاضر كما كانت وقتها. ولا نستغرب ان احمد لم يحمل كثيرا من الخير ليقوله حول الانتخابات نفسها او الطريقة التي تمت بها. "الانتخابات": تحمل مظهر برّاق من حيث النوايا ولكنها إهانة واضحة لذكاء الناخبين. ورغم ذلك استخدم الاحصاءات المؤكدة التي استطاع الوصول إليها لإظهار الانخفاض المعتاد للمشاركة الجماهيرية في مثل هذه الأحداث الملفقة بهذا الشكل

الواضح والتي تصبح غير ذات معنى المرة بعد المرة، وإظهار الحقيقة المترتبة على ذلك بأن نظام الحكم بات يعتمد على قاعدة شعبية آخذة في التآكل. ولننظر مجرد مثال واحد من عديد من استخلاصاته اللاذعة لكامل هذه الاجراءات: "تحولت الانتخابات البرلمانية إلى مناسبة للنفاق والحصول على المزايا الخاصة اكثر من كونها عملية جادة لصناعة القرار السياسي. ولذلك أصبحت الانتخابات عملية مقاصدة، يبيع وشراء لأصوات الناخبين من خلال أسلوب المقايضة إن لم تكن من خلال الدفع المباشر عدا ونقدا".

ولهذا أصبح "البرلمان" كما كان يراه أحمد، في عقول معظم المواطنين المصريين ليس أكثر ولا أقل من آلية لتقديم الخدمات. وكما كتب، لذلك لا يراه المصريون "سلطة يحتاجونها لحماية المصالح الاجتماعية والوطنية العريضة". ويصبح ذلك حقيقيا أيضا مع النخبة الحاكمة التي تستخدم البرلمان "كمجرد مكتب بيروقراطي لإدارة الشؤون التشريعية ولا تراه هيئة مستقلة لصنع القوانين".

وفي الأخير، "أي مصر؟":

يرى احمد عبد الله ان مصر تقف في مفترق طرق بين الديمقراطية والديكتاتورية. لذلك لا يوجد بديل سوى أن نصلح النظام الانتخابي في جانبه القانوني وفي جانب الممارسة وأن نصلح دور البرلمان وأداءه. عندها فقط سوف تصبح مصر قادرة على مواجهة التحديات الأربع الكبرى التي تواجهها: الحقائق الجديدة لعالم ما بعد الحرب الباردة، والمشاكل الإقليمية، والمشاكل الداخلية والتحدي الرابع الذي يفرضه وجود جيل أصغر من الشباب كان ضحية للتحديات الثلاث الأولى، جيل كما يمضي احمد في تأكيده "يواجه مصاعب تكاد تفوق إمكانياته وعوائق تقف في طريق تعليمه وتوظيفه وسكنه وزواجه". جيل فقد الإيمان بكل شيء، وبالتالي ينقسم أفراد هذا الجيل إلى "أولئك الذين أصبحوا غير مبالين بكل أوجه الحياة، وأولئك الذين سقطوا فريسة لإدمان المخدرات وأولئك الذين يحاولون الهروب بالهجرة بدنيا خارج المكان".

عرف احمد كل هذه المصاعب. ولكن الاصيل عنده ايضا هو ختامه بالإشارة الى ضرورة وجود "أمل". كتب أحمد في مقالته عام ١٩٩٥ ان "الأمل هو الوقود الضروري للاستمرار في التقدم للأمام وتحمل كل مصاعب التغييرات المستقبلية".

الأمل: عرف أحمد عنه الكثير - وعرف احمد ايضا الكثير عن اليأس.

حتى تبدأ عليك فقط ان تتظر في تاريخ حياته. ولد عام ١٩٥٠. نما وترعرع خلال ما اعتقد انه فترة التفاؤل العظيم "لأوج" الناصرية حول قدرة مصر على التطور، وعلى أن تضع نهاية للتدخل الأجنبي وان تفود العالم العربي إلى عصر جديد أفضل.

انتفع احمد ايضا من الانفجار التعليمي الضخم، وقد سجل شدة هذا الانفجار في كتابه حول "الحركة الطلابية والسياسات الوطنية في مصر":

- زيادة ضخمة في التمويل

• نمو ضخّم في عدد الطلاب المقيدّين في الجامعات المصريّة التي زاد عددها، لينمو من ٥٤ ألف طالب في ١٩٥٢ إلى 130 ألف طالب وطالبة (1965/1966) ويصل تقريبا إلى 200 ألف طالب حول عامي 2/1973،

• مع مجانيّة التعليم الجامعي في 1962

ولكن ذلك كله لم يكن دون مشاكله الضخمة كما نعرف وكما لاحظ هو في كتابه: أن تمنح ميزة منهجية لأطفال الطبقة الوسطى المصريّة الأفضل تعليما، بمكتبات وقاعات محاضرات شديدة الزحام، وحملة شهادات جامعيّة بمعرفة قليلة عن تاريخ بلدهم وهكذا.

مرة أخرى هو كان يعرف ذلك.

وأعقب ذلك سنوات السادات، نهاية التجربة الناصريّة، الانفتاح (تحويل وانفتاح الاقتصاد المصري نحو الليبرالية)، عودة الإسلام الراديكالي، وكل ما ترتب على ذلك بالنسبة للنشطاء، كانت أمور تدفع للحركة ومُزلزلة وهذا ما حدث معه. والجرح الأعمق - العودة إلى مصر وعدم السماح له بالاستفادة من شهادته الجامعيّة أو مواهبه السياسيّة سواء في الجامعة أو الحياة العامّة كما كان يتوقع عن حق لقدرته على تحقيق ذلك. وكونه رجل مفعم بالأمال العظام، يحمل رغبة عظيمة في النفع العام، وتقديم خدمات جليّة، رجل ذو كبرياء وكرامة عظيمة - فلا بد وأن ذلك قد سبب له ألما أكثر مما استطيع أنا ومن المحتمل معظم الحضور هنا أن يعرفوه فعلا.

والأهم، لم يكن ألم أحمد عبدالله مجرد ألم شخصي، بل ألم تشارك فيه مع كل هؤلاء الآخرين في مصر الذين حُرّموا من أي فرصة لازدهار طاقاتهم ومواهبهم العقليّة ومهاراتهم السياسيّة الكامنة - يحدث هذا عندما تكون مصر مثلها مثل كل البلدان ذات الطموحات المماثلة في حاجة بالضبط لهذه النوعيّة من البشر مثل أحمد عبدالله حتى تبلغ المكانة التي تقترب بها من تحقيق إمكانيّاتها وقدراتها كاملا.

وهكذا، وبطريقة ما أصبح احمد عبدالله مثل كثيرين في قدره، أشبه بما يكون رجلا "هامشيا"، ببعض المميزات، إلى جانب كل المعوقات الهائلة التي يفرضها مثل هذا الوضع. وهو الشيء الذي وددت التحدث فيه لبعض دقائق معدودات. ولكن قبل ان نترك احمد عبدالله الطالب هناك بعض أشياء إضافية أود قولها حول رسالته للدكتوراه التي تحولت إلى كتاب، وهي سجل مدهش لأعمال الرجل ولحياته كطالب.

(The Student Movement and National Politics in Egypt (London: Saki, 1985

إهداء: إلى أهل مصر القديمة: الأمميّون الذين "علموني، والفقراء الذين أغنوا ضميري"

وملاحظة تقول ان وضع هذا الكتاب أخذ سنوات عديدة من البُعد عن الأهل الذين هم محل إهداء الكتاب. ثم يتلو ذلك تمهيد سجل فيه الكاتب أنه رجع لمجموعة واسعة من المراجع والمصادر تتضمن مقابلات مع نشطاء آخرين من الطلبة - كانوا منتشرين في أصقاع العالم - وعدد من الوثائق التي حصل عليها بوصفه واحد من النشطاء أنفسهم.

ثم الكتاب ذاته الذي جمع فيه بين فحص النظام السياسي الذي نشأ وتطور منذ ١٩٢٣، مع دراسة للظروف التعليمية والاجتماعية خلال ما أسماه "الانتفاضات" الطلابية الأربع في أعوام 35/1936 و ١٩٤٦ و ١٩٦٨ و 72/1973. يتوافق كثير مما كتبه احمد حول الانتفاضتين الطلابيتين الأولتين مع الرؤية المتعارف عليها لهذه الأحداث، المسيرات من جامعة القاهرة، عبور النيل إلى وسط القاهرة، موت المشاركين وجنازاتهم وهكذا، وهي الرؤية التي يُمسك فيها بالدراما الأصلية لهذه الأيام بمؤسساتها الجهورية للاحتلال البريطاني - السفارة في جاردن سيتي، والقشلاقات العسكرية فيما أسماه بشكل صحيح ميدان الاسماعيليه - والمؤسسات الجهورية للدولة المصرية - البرلمان والقصر والوزارات، وكلها تقع في حدود مسار المظاهرات وعلى مسافة يسيرة من الجامعة نفسها. وكوبري عباس، ذو الشهرة الذائعة، الذي يمكن فتحه وإغلاقه ليس فقط أمام الملاحة النهرية ولكن أيضا من اجل منع مسيرات الطلبة من عبوره للانتقال من ضفة النهر في الجيزة إلى قلب القاهرة.

ولم يكن غريبا اهتمام احمد باستخدام هذه الأحداث للخروج بالعديد من النقاط الاكبر. أولا، ونتيجة لهذه التحركات أثناء الأزمة الدستورية والسياسية الكبرى لعامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦، ظهر الطلاب "كقوة سياسية متميزة على المستوى القومي".

ثانيا، مع تمثيلهم لهذه القوة، أصبح الطلاب قادرين أيضا على لعب دورا هاما في إقناع زعماء الأحزاب السياسية المصرية على تشكيل صيغة ما أصبحت تُعرّف في ١٩٣٥/٦ باسم "الجبهة المتحدة". وثالثا، وفي ١٩٤٦ على الاقل، أثناء المظاهرات الكبرى الداعية إلى توقيع بريطانيا لمعاهدة تمنح بها مصر استقلالها كاملا، لم يلعب الطلاب فقط دورا أجبر الجميع على صياغة مجموعة من المطالب القومية من خلال إصدار ما صار يُسمى وقتها "الميثاق الوطني" ولكنهم لعبوا دورا فعليا في خلق صلات مؤسسية مع قوى سياسية أخرى بلغ ذروته بتشكيل اللجنة الوطنية للعمال والطلبة.

ثم بعد فترة من الزمن أسماها احمد "البيات الشتوي"، ١٩٥٢-١٩٦٧، عاد الطلبة إلى مقدمة صفوف الحياة السياسية الوطنية في موجتين عام ١٩٦٨، وموجتين أكثر في 72/1973. سوف يكون هذا بالطبع جزء من خبرة سنوات الجامعة للعديد ممن يجلسون في هذه القاعة مثلما تمثل هذه السنوات بالنسبة لأحمد نفسه بالطبع، وهنا يأتي احمد الى داخل تجربته الشخصية بتحليل شامل للحركات الطلابية التي تنتشر الآن عبر العديد من الجامعات في مصر الجديدة منها والقديمة، إلى جانب العديد من المدارس الثانوية خصوصا في عام ١٩٦٨. فقط أين كان احمد عبدالله في عام ١٩٦٨ نفسها، انتم سوف تتذكرون خيرا مني، ولكن في ١٩٧٢ من الواضح انه اشترك في الأحداث بقوة، وهو الشيء الذي لا يظهر مباشرة في نص الكتاب ذاته ولكن في العديد من الهوامش أسفل الصفحة التي تقوم على تجارب شخصية واضحة.

في تحليل احمد، الحملات الطلابية في ١٩٦٨، خصوصا الموجة الأولى التي بدأت في فبراير كرد فعل على هزيمة حرب يونيو ١٩٦٧، والأحكام المُخفّفة التي صدرت بحق قادة سلاح الطيران والإضراب الضخم للعمال والمظاهرات

التي بدأت من حلوان، هذه الموجة مهدت الطريق لعودة النشاط السياسي الطلابي من عدة سبل. أولاً، حررت هذه الموجة الجامعات ذاتها بتراجع بعض من الرقابة الأمنية، بينما شجعت في نفس الوقت أشكال جديدة من التعبير مثل جرائد ومجلات الحائط والاجتماعات السياسية وهكذا. وكما يعلق أحمد على ذلك، كان لدى الجامعات آنذاك أكثر الصحافة حرية في مصر. وكانت النتيجة بكلمات أحمد اللاذعة هي الطريقة التي سمحت بها هذه الحريات للطلبة ان "يتملصوا" من الاحتواء الايديولوجي الحكومي - خطوة حيوية كنت اود منه لو قال عنها الكثير والكثير وخصوصا في ضوء ما كان عليه ان يقوله أيضا في نقده لاحتجاج طلاب المدارس الثانوية في المنصورة وفي الأماكن الأخرى أثناء الموجة الثانية من النشاط في عام ١٩٦٨ - وهي محاولات هؤلاء الطلبة قطع الطريق على مجموعة من الاصلاحات الحكومية في مجال التعليم والتي أظهرت أن الحكومة نفسها كانت "أكثر تقدمية من الطلاب".

ثانيا، لم تجد مطالب الطلبة ترحيبا على المستوى القومي فقط ولكنها جعلت أيضا زعمائهم وممثليهم في اتصال مباشر مع قلب المؤسسة الناصرية من خلال سلسلة اجتماعات مع الوزراء والمسؤولين الكبار وأعضاء مجلس الشعب. وهنا أيضا تبدأ هوامش احمد في اكتساب إثارة حقيقية، لتعطي أسماء العديد من زعماء الطلبة - مع بعض تعليقات حادة بمعايير الكتاب على الأقل وبشكل لا يميز أسلوب احمد حول "الشخصيات الانتهازية" بين هؤلاء الزعماء الطلاب، وأرقام واقعية لهؤلاء الذين أصيبوا في المظاهرات وأولئك الذين ألقى القبض عليهم وتفاصيل أحداث صغيرة كانت تبدو ولا بد أنها كبيرة في ذلك الوقت، مثل إلقاء الطلاب القبض على محافظ الإسكندرية الذي بكلمات أحمد أتى "بشجاعة" لكي يخاطب الطلاب.

الانتفاضة الرابعة، لعامي 72/1973 في رأي أحمد كانت تتويجا لقدر هائل من النشاط السياسي والتنظيمي - مجلات وجرائد الحائط، إنشاء الاسر السياسية الجامعية وعقد الاجتماعات الجماهيرية العلنية - فقط وصف احمد كل ذلك. مرة أخرى، يصف الكتاب ما اتصور أنه تجربة معظمكم أيها الحضور، سواء التجربة المباشرة أو لأنكم علمتم بها من شخص شارك فيها فعلا. الشرارة كما نعرف كلنا كانت خطاب "الضباب" سيء الصيت الذي ألقاه السادات في ١٣ فبراير ١٩٧٢. وضع السادات نفسه في هذا الخطاب في موضع مثير للسخرية، محاولة منه لتفسير لماذا لم يجعل من عام ١٩٧١ "عاما للحسم" كما طنطن لذلك كثيرا.

سرعان ما أدت المظاهرات التي بدأت من كلية الهندسة جامعة القاهرة إلى إنشاء اللجنة الوطنية العليا لطلبة الجامعة، وإلى وضع مسودة لبيان الطلاب وجهود أخرى من اجل الحصول على لقاء مع الرئيس السادات نفسه. ما ناله هؤلاء الطلبة بدلا من ذلك هو عرض بلقاء مع أعضاء من مجلس الشعب. ولكن قبل اكتمال المفاوضات اجتاحت قوات الأمن المركزي الجامعة. رد الطلاب بعدها بتنظيم مظاهرات واسعة أعقبها اعتصام بميدان التحرير حتى تم تفريقها.

وفي نفس الأثناء، كنتيجة لنمو الدعم الجماهيري، اضطر الرئيس السادات إلى تبني اتجاه أكثر تصالحاً، وأطلق فعليا سراح معظم الطلبة المقبوض عليهم وأغمض عينه عن حقيقة أن عدد من النشطاء حتى مع حرمانهم المفترض من دخول الحرم الجامعي عادوا إلى حضور محاضراتهم الدراسية.

وقد جهز ذلك المسرح للمرحلة الثانية التي بدأ فيها النشاط السياسي الطلابي من جديد مع عودة الدراسة في العام الأكاديمي التالي، ١٩٧٢/٣، ومن ثم مرة أخرى بعد العودة من إجازة منتصف العام الشتوية. مزيد من مجلات الحائط. مزيد من الاجتماعات التي تتصاعد إلى مؤتمر يومي مفتوح بجامعة القاهرة. مزيد من القبض على النشطاء والمظاهرات المضادة. ولكن مرة أخرى، تهدأ الأمور كلها في الصيف لصالح الوحدة الوطنية استعدادا لحرب أكتوبر. واتصور ان احمد في ذلك الوقت قد أطلق سراحه من السجن ليشق طريقه إلى بريطانيا.

أما فيما يتعلق بالموجة الثالثة، ولكن فقط المزيد هذه المرة، تحتوي هومش أحمد نتف وقطع عديدة مثيرة من المعلومات المستمدة الآن من تجاربه الشخصية: أسماء الأسر الطلابية، نتائج انتخابات اتحاد الطلبة، الشعارات والجدالات الكلامية بين الطلاب والوزراء - احدها على نحو خاص اكثر درامية لانقطاعها عدة مرات بسبب الاتصالات التليفونية المتكررة من الرئيس السادات نفسه.

وهناك أمور مثيرة لنقولها عن الهومش حول اتجاه الامتناع الذي تبناه الطلاب نحو هؤلاء المرسلين الصحفيين الأجانب في القاهرة في ذلك الوقت - على سبيل المثال ما فعلوه مع مراسل الجارديان ديفيد هيرست - خشية أن تستطيع السلطات اتهامهم بالعمالة للخارج، ومن هذه الروايات ما ذكره احمد عبد الله عن اللحظة التي اكتشف الطلبة فيها ثلاثة من هؤلاء المرسلين الأجانب الذين نجحوا للتسلل إلى قاعة الاجتماعات بالجامعة أثناء احد المؤتمرات وطلبوا منهم مغادرة المكان.

بل إن الأكثر اثاره بالنسبة لمن هم مثلي ومثلكم ممن يعرفون احمد هو ظهوره "الأول" بنفسه في هومش كتابه كمؤلف لمجلة حائط بدأت في الظهور في ديسمبر ١٩٧١ باسم "المسودة" - مع تعليق فرعي يقول فيه "لن ادع أي احد يكون رقبيا علي ولن افرض من نفسي رقبيا على نفسي. سوف انشر مسودتي كما هي".

وقد كان هناك أيضا عندما سجل ملاحظته على تقرير يقول أنه كان قائد اللجنة الوطنية العليا لطلبة جامعة القاهرة والذي كتبه ديفيد هيرست في الجارديان يوم ٢٥ يناير ١٩٧٢.

وفي الأخير، هامش دون اسم، ولكنه بالتأكيد هو بطلنا احمد عبدالله، يذكر الحوار المتبادل التالي مع وكيل النيابة في احد المحاكمات الطلابية:

المدعي العام لطالب في القفص: "يبدو ان المقالة المعنونة *Tractatus Theologico-Politicus* تسخر من الحكومة وتندد بقمعها للحريات".  
المتهم: "إنها وجهة نظر سبينوزا - اسأله عنها".



رواية احمد عن الحركة الطلابية تنتهي تقريبا في نفس اللحظة التي وصل فيها دوره المحوري في الحياة السياسية الوطنية إلى نهايته القسرية.

- ذهبوا به إلى السجن، ثم خرج من السجن.
- أتى إلى إنجلترا.
- حصل من جامعة كمبردج على درجة الدكتوراه
- عاد إلى مصر ولم يستطع الحصول على وظيفة أكاديمية
- اضطر لأن يصنع لنفسه حياة بديلة: نشر اطروحته للدكتوراه، أسس مركز الجيل، انخرط في العديد من الحملات السياسية المحلية، وفي الأخير - حيث انكم أيها الحضور تعرفون أكثر مني - انجر إلى العمل السياسي المحلي مرة أخرى بترشيح نفسه في الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٥.
- لم تكن تلك الحياة من اختياره. ولكن ظهر أنها كانت حياة لها مكافأتها الخاصة إضافة إلى خيبات أملها المريرة.
- على الجانب الأيجابي منها، أخرجت هذه الحياة افضل ما فيه، لتشمل جوانب ربما كانت سوف تبقى اقل بروزا فيما لو استطاع ان يشغل وظيفة أكاديمية أو يمتحن مهنة سياسية تقليدية. أنا هنا أفكر على نحو خاص بكلمة صاغتها الروائية والكاتبة الأمريكية والجزائرية الجنسية ثم الفرنسية الجنسية سابقا كلير مسعود - الصفة التي تتسبها الكاتبة لواحد من شخصيات روايتها الذكور والتي تسميها "رجولته".
- كلنا هنا يجب أن نكون قد استفدنا مرة ومرات عديدة من "رجولة" أحمد الشخصية.
- يحضرنى اهتمامه بكثير من الأشياء وبالعديد من الناس.
- يحضرنى احترامه الذي كان يُظهره بطرق مختلفة لأرواح وحياء الآخرين.
- يحضرنى عدم استعداده لارتكاب ما يُسمّى عند الأمريكيين "نشر الغسيل القذر" للآخرين.
- يحضرنى حبه للنقاش ولقصصه ولنكاته ومرحه الطفولي.
- يحضرنى جاهزيته الدائمة عند السفر للخارج للقيام بمغامرات بسيطة، أن يذهب إلى مكان ما جديد، وأن يغتتم مميزات تغيير الخطة في آخر لحظة.
- يحضرنى ابتسامته السريعة وشيطنته الصيبانية
- تحضرنى رشاقته البدنية المدهشة
- يحضرنى كأب لبشرى، وحبها لها والطريقة التي كان يعاملها بها حتى وهي صغيرة تماما كأنها ند له، والطريقة التي استطاع بها أن يعلمها احترامها لذاتها وكيف تُثمي مواهبها الشخصية العديدة.
- وأني لاتعجب لقدرة هذه الحقيقة وهي أنه استطاع الاحتفاظ بهذه الصفات الجميلة واستطاع مساعدة بشرى في أن تجد لنفسها مكانا في هذا العالم الأوسع وأن ذلك لم يكن بسبب ما افترضه صديق آخر من أصدقائه، المخرج السينمائي ميشال جولدمان، عندما قال لي ان "هامشيتة" الخاصة والفضاء الذي منحته له هذه الهامشية، وآخرين مثله، حرية أن

يكونوا أنفسهم بطريقة قد لا يكونوا قادرين عليها أمام الضغوط الهائلة التي تمارسها مصر - والعديد من البلدان الأخرى أيضا - على أولئك الذين تعتمد حياتهم على التدريس والكتابة والذين يصنعون حياتهم من خلال مهنتهم والاستمرار في الظهور.

أنا أعلم أنه موضوع صعب، بل وحتى مثير للجدل. وأنا أعرف أيضا أن أحمد سوف يفضل مليون مرة ألا يكون مُهمَّشا بهذا القدر الذي كانه. ولكن مع العلم أنه لو توفر له اختيارا ضئيلا في هذه المسألة، يبدو لي أن كثير مما نتذكره عنه كأحسن ما يكون كانت الراحة والبركة التي جاءت من كونه استطاع أن يحيا في مساحته الخاصة، قادر على محاسبة ضميره، وما يشعر أنه حق وأنه خطأ.

ماذا يمكننا صنعه بأحسن ما يكون لتكريم ذكرى هذا الرجل البارز بشكل مؤسسي سليم؟ هنا تبدو لي فكرة ملهمة أن نعيد أسمه مرة أخرى إلى داخل جامعة القاهرة حيث كان المكان الذي بدأت منه رحلته السياسية والفكرية. وهذا يعني جمع المال والتبرعات. هذا يعني خلق نوع ما من التنظيم قادر على ترتيب محاضرة سنوية تشمل متحدثين قادرين بشكل جيد معالجة تلك الموضوعات العديدة والعديدة التي كانت قريبة من قلب أحمد ومن بداياته، ربما، ما يتعلق بحرية التعبير، واسينوزا، وكيف نحسن تنظيم أنفسنا، وكيف تستديم حياة سياسية وفكرية شفافة ومنفتحة ونابضة بالحياة. وذلك يعني اتخاذ خطوات لضمان أن المتحدثين أنفسهم على قدر عال من العلم بشخصية وانجازات الرجل الذي تمت دعوتهم ليكرمونه.

## من التآمر الى المواجهة: الاسلاميون والدولة في مصر

احمد عبد الله رزة

1993

تتعي مجلة ميريب (تقرير الشرق الاوسط) رحيل احمد عبد الله، زعيم من زعماء الحركة الطلابية التقدمية في مصر اثناء السبعينات وقد ساهم مرارا بكتاباته في ميريب. نعيد نشر تعليقه السابق على السياسة المصرية الذي نشر هنا في المجلة، والمكتوب منذ 13 سنة. ورغم ان الكثير قد جرى منذ ذلك الحين، فتحليله للأوضاع يظل مفيدا لفهم ما يجري في مصر اليوم بدرجة لافتة للنظر.

احمد عبدا لله هو مؤلف كتاب الحركة الطلابية والسياسة الوطنية في مصر (لندن: دار نشر ساكي، 1985)، ومحرر تقرير الجيش والديموقراطية في مصر (بالعربية، القاهرة 1990)، والتاريخ المصري بين المقاربة العلمية والسياسة الحزبية (بالعربية، القاهرة 1988).

مرت 20 سنة منذ ان استخدمت الدولة المصرية لأول مرة الاسلاميين ضد اليسار. اليوم بلغ تمرد الاسلاميين ابعادا تجاوزت قدرة الدولة على التعامل معه.

انتهت المواجهات التي وقعت في منتصف الطريق، والتي كانت علامتها البارزة اغتيال انور السادات في 1981، دون هزيمة ولا نصر لطرف من الطرفين. الآن، بعدها بعقد من الزمان، تشتعل المواجهات بأعنف مما سبق. الآن يميز العنف وليس "العنف" الاسلامي فقط، المناخ العام لأمة من المفترض انها امة مسالمة وديعة<sup>1</sup> لا يُعتبر الارهابيون الإسلاميون غرباء على هذا المناخ العام لعنف الدولة وعنف المواطنين. عندما وقع شغب من المواطنين العاديين في 1992 ضد السلطات بادكو وأبو حماد، تلك المدن التي تقع بالدلتا (حيث الامور في الدلتا عموما هي اهدأ منها في صعيد مصر)، لم يتورط في تلك الاحداث إسلاميون<sup>2</sup>. كان الشغب رد فعل تلقائي ضد وحشية الشرطة. تقريبا نفس الاحداث وقعت في القاهرة نفسها، في الحي المفضل عند الكاتب نجيب محفوظ: الجمالية.

الآن تدفع الدولة المصرية ثمن تصرفاتها السابقة مع الإسلاميين دون حاجة لذكر تأمرها المسبق معهم. تجنب المواجهات هي طبيعة المقايضة الفطرية عند الدولة المصرية وليست نتاج سياسة دولة تمارس بعناية وعن قصد. كانت الحكومة تغمض عينا عن اجتثاث ما يمثل سلطتها على أرضها. في المقابل، لم يصطدم الاسلاميون بفساد وعجز الدولة، خصوصا في صعيد مصر.

عندما قررت الدولة اخيرا ان تتصدى، هل كان ذلك رد فعل خالص ضد التمرد المسلح؟ اطلقت شرارة المواجهات الكبرى في نهاية 1992 وأوائل 1993 سلسلة من الاغتيالات لمسئولي "الاجهزة الأمنية" بسبب دورهم في تعذيب وقتل الإسلاميين. كان كلا من وزير الداخلية الحالي والسابق على قمة القائمة المستهدفة. ولكن الدولة كانت قد تحملت ذلك من قبل، كما تقبلت قتل ثلاثة عشر مسيحيا في ديروط في مايو 1991. كان السبب في تغير شكل السياسة التي اتبعتها الدولة

1 هناك على سبيل المثال حادثة حرق طفل حيا في مشادة بالقاهرة. الأهرام، 1 يناير 1993

2 انظر صحيفة الشعب، 2 أكتوبر 1992

سابقا هو التحديات غير العنيفة والمنذرة بالخطر التي مثلها الاسلاميون اكثر من كونه مجرد رد فعل على أحداث العنف الإرهابية.

من بين هذه التحديات كان انتصار الاسلاميين في الانتخابات المحلية. اكثر من ذلك، خسر النظام مع حلفائه من اليمين واليسار انتخابات نقابة المحامين التي كان مجلسها منذ زمن طويل يتشكل دائما من الليبراليين. عقد الشيخ جابر، زعيم "جمهورية امبابة الإسلامية" في القاهرة مؤتمرا صحفيا دوليا سخر فيه من "ضعف سلطة الحكومة على امبابة باعتبار انها منطقة "سلطانه". القشة الاخيرة التي قصمت ظهر البعير كان التحدي الذي فرضته الهجمات الارهابية على السياح الاجانب<sup>3</sup>. نفذت الدولة هجمتها الكاسحة بأسلوب سوف يثبت انه غير مجد على المدى الطويل، وربما حتى على المدى القصير.<sup>4</sup>

عندما زعم الرئيس حسني مبارك في معرض القاهرة للكتاب في يناير 1993 انه يحاول تجنب مصر مصير الجزائر، بدا انه يتناسى ان اسلوب مقارنته للأمر قد يمضي بها الى المصير الإيراني، فنظامه لا يدخر جهدا في استثارة سخط الناس وتغريب النخبة.

يتحمل المصريون العاديون ثوابا عبا الازمة الاقتصادية والإصلاح الهيكلي. ولا يتحمل الامر المزيد من التحرش في صور وحشية البوليس المتزايدة. ففي الوقت الذي يتعاطف فيه قلة من المصريين ضد الإرهاب، خصوصا هؤلاء الذين يعانون من خسارة دخل السياحة في مصر العليا (الصعيد)، لا يزال كثير من المصريين كارهين للشرطة. حذر احد الصحفيين من انه دون تدخل المواطنين في المواجهات فان الصورة ستبدو كما لو كانت مواجهة بين "عائلات" الشرطة و"عائلات" الإرهابيين.<sup>5</sup> وجد المواطنون انفسهم محاصرين في المنتصف بين تراشق النيران، سواء كانوا مواطني امبابة او مواطني اسبوط.<sup>6</sup> في مذبحه أسوان قُتل ثمانية مواطنون "ليسوا بإرهابيين" وقت الصلاة داخل مسجد الرحمة في 1 0 مارس.<sup>7</sup> في نظر بعض المراقبين يدعم التعذيب الوحشي للمعتقلين الاسلاميين والإرهابيين وغير الإرهابيين منطق انصار العنف الموازي،<sup>8</sup> مع استمرار نصح الصحفيون والمتفقون للحكومة بعدم فاعلية "الحل الأمني" ناهيك عن التجاوزات الامنية.<sup>9</sup>

3 انظر صلاح الدين حافظ، "قيام وسقوط دولة إمبابة"، الأهرام 16 ديسمبر 1992

4 من اجل التعرف على تفاصيل المواجهات الحالية، ارجع لتقرير هشام مبارك، "سياسة الارض المحروقة"، اليسار (ابريل 1993).

5 نبيل عمر، "اسبوط تخلع قناع الخوف"، الأهرام، 25 مارس 1993

6 لاحظ تجاوزات الشرطة في حصار امبابة وعمليات التطهير. انظر تقرير المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، 20 مارس 1993.

7 الشعب، 16 مارس 1993، والأهالي 17 مارس 1993.

8 انظر "كيف تم تعذيب استاذ في جامعة القاهرة"، الشعب، 2 فبراير 1993.

9 ضربت امرأة شابة في احد اقسام بوليس القاهرة. اتضح بعد ذلك انها ابنة طبيب نفسي شهير، وصادف ان عمها هو الرجل الثاني في مديرية امن القاهرة! لا يبدو ان احدا بعيد عن طائلة الانتهاكات. انظر محمد شعبان، "الاجلبية الصامتة"، الشعب، 2 ابريل 1993. نصح احد كبار رجال الشرطة "المتقنين" (جنرال وحامل درجة الدكتوراه) بأنه يجب معاملة الارهاب كجريمة في حد ذاتها دون الرجوع التبريري لأسسه الاجتماعية. احمد جلال عز الدين، "مسألة الارهاب وطريقة تناولها"، الأهرام، 13 مارس 1993

## هجمات بلا تمييز

اصبح استهداف الاسلاميين بلا تمييز اكثر خطورة.<sup>10</sup> تستثمر الحكومة الدعم والتأييد الذي أسبغه عليها كلا من اليمين واليسار. اسدلت الوجد، المفترض انها الصحيفة الليبرالية الاولى في العالم العربي، ستارا تاما على انتهاكات حقوق الانسان عندما تقف ضد الإسلاميين. شدد السكرتير العام لحزب التجمع رفعت السعيد، على طائفية الاسلاميين (قاصدا اعتداءاتهم على المسيحيين). اطلق الدكتور رفعت عليهم اسم "المتأسلمين"، منكر اى منطق لهم ورفض التمييز بين معتادليهم ومتطرفيهم.<sup>11</sup> تميّز قاموس صحافة كلا من الحكومة والمعارضة بمفردات الالفاظ الطائشة، ما عدا الصحيفة الاسلامية الجديدة: "الشعب" الناطقة باسم حزب العمل الاشتراكي. وبشكل اكثر مغزى، بدأت الحكومة التحرش بحزب العمل والإخوان المسلمين، مما يعني تنميط الحركة الاسلامية رغم تعدد فصائلها. ولا يعد ذلك استفادة من دروس التاريخ. بعد الفشل في هزيمة الاخوان المسلمين في صناديق انتخابات النقابات المهنية، خصوصا نقابة المحامين، فرضت الحكومة بشكل منفرد لوائح قانونية جديدة على الاتحادات والنقابات. تلك الحقبة هي اعلان افلاس سياسي. قانون الانتخابات الجديد تم تفصيله والتصديق عليه بسرعة، في 24 ساعة حرفيا. يفترض القانون، حتى تكون انتخابات الاتحادات والنقابات شرعية، يجب عقد جمعية عمومية من نصف الاعضاء الصحيحة اصواتهم. لا يوجد مثل هذا الشرط، ولم يحدث ابدا ولن يحدث ولا مرة في الانتخابات الوطنية البرلمانية او حتى في الاستفتاء على رئيس الجمهورية.

هذا النص القانوني، المسمى رسميا "قانون الضمانات الديموقراطية للنقابات المهنية"، أطلق عليه فوراً اسما كاريكاتوريا هو "قانون تأميم النقابات"، لإظهار التناقض بينه وبين حملة الخصخصة الجارية للاقتصاد. رد فعل النقابات نفسها، خصوصا نقابة المهندسين، التي توافق انعقاد جمعيتها العمومية مع صدور القانون، كان بشكل واضح معاديا للحكومة. دفعت الحكومة بالإخوان المسلمين الى مقدمة صفوف المعارضة وبشكل لا يمكن الرجوع فيه. رد فعل الاخوان على ذلك كان لينا بشكل تكتيكي. عقدوا لقاء مع رئيس الوزراء لمناقشة تسوية، ناقلين القضية الى قاعات المحاكم، وعملوا على تهدئة غضب اعضاء النقابات من المستويات الدنيا.<sup>12</sup> وقد عكس ذلك نوايا الاخوان وتصميمهم على تجنب مواجهة مع السلطات، حيث استشعروا ان موجة القمع آتية كالطوفان. عمدت الحكومة ايضا الى اشعال التوتر داخل حزب العمل الاشتراكي، داعمة من وراء الستار جماعة منشقة لتعقد مؤتمرا، وتطرد قيادة الحزب وتوقف اصدار مطبوعة الشعب التي هي جريدة الحزب.<sup>13</sup> هذه المحاولة اجهضها الحشد السريع لأعضاء الحزب، بمن فيهم شخصيات معارضة ترفض تدخل الحكومة في شؤون الحزب من ناحية المبدأ.<sup>14</sup> في الدقيقة الاخيرة، كبحت الحكومة من اندفاعها في هذا الطريق (ربما اثر نصيحة خارجية).

بفضل سوء حسابات الحكومة وسوء تصرفاتها، اصبح حزب العمل الاشتراكي، الذي حصل على ٨٪ من الاصوات الانتخابية في 1984، ونحو ١٨٪ مجتمعا مع الاخوان المسلمين في التحالف الاسلامي عام 1978، اصبح هذا الحزب قطبا في السلطة يمثل بديل اسلامي راديكالي لا يستخدم العنف في مصر. لو عُقدت انتخابات حرة الآن، قد يصبح تكرار التجربة الجزائرية هو المأل.

10 فهمي هويدي، "التفكير السياسي"، الاهرام 2 مارس 1993.

11 انظر حوار المنشور مع راشد الغنوشي الاسلامي التونسي في صحيفة الأهالي، 18 نوفمبر 1992.

12 انظر مدحت الزاهد "تصف انتصار نصف هزيمة"، اليسار، ابريل 1993

13 اخبار اليوم، 20 فبراير 1993

14 مصطفى امين وصفها "جريمة الامل". اخبار اليوم، 20 فبراير 1993

يقال المتقنون العلمانيون من هذه الاحتمالية، كما فعلوا من قبل في الجزائر قبل ظهور نتائج الانتخابات هناك. في محاولة لتقييد العلاقات الاسلامية الدولية التي يقيمها حزب العمل الاشتراكي، ادخلت الحكومة تغييرات على قانون الاحزاب السياسية. لقد جعلت من تصريح لجنة الاحزاب (التي يهيمن عليها عناصر من الحزب الحاكم) شرطا مسبقا للأحزاب حتى تقوم بنشاطات دولية، والتي عليها ان تقدم تقريرا للجنة بعد حدوث هذا النشاط.

وبالمزيد، منعت الحكومة الاحزاب المتقدمة بطلب رخصة حزب من النشاط حتى يتم البت في طلبها وقد كانت هذه الاحزاب حتى الان مسموحا لها بالحركة حتى تأخذ الترخيص أو ينتهي الامر بالرفض. في الواقع الفعلي، يدفع النظام من يريد العمل فوق السطح الى النشاط تحت الارض!

ولإثبات حزمها ضد الإرهابيين ولكن على حساب الهيئة القضائية، اصدرت حكومة مبارك في اكتوبر الماضي قرارا بمحاكمة المتهمين الاسلاميين امام محاكم عسكرية. وبعد محاكمة مظهرية سريعة في الاسكندرية اوائل ديسمبر، اصدرت المحكمة العسكرية حكما بالاعدام على ثمانية من المتهمين الاسلاميين وأحكاما بالسجن المشدد الطويل على 30 آخرين.<sup>15</sup>

فيما بعد ابطلت محكمة القضاء الاداري هذا الحكم، وكان رئيس قضايتها المستشار طارق البشري، الذي تعرض لهجمات لاذعة من عملاء الحكومة في الصحافة والبرلمان؛ والقضية الان بين يدي المحكمة الدستورية. في منتصف ابريل ستجري وقائع قضية اخرى لخمسين اسلاميا متهمين بتنفيذ هجمات ضد سياح اجانب امام محكمة عسكرية بالقاهرة.

لاحباط الميول الإسلامية تختزل الحكومة المحتوى الديني في وسائل الاعلام وتخفف من النزعة الطائفية في المدارس. حتى رغم ان تطبيق هذه السياسة قد يؤتي بثماره على المدى الطويل، تشكك البعض في طريقة التنفيذ الفجائية.<sup>16</sup> عندما طرد وزير التعليم احدى المدرسات وطالباتها الاربعة من التعليم بسبب اذاعتهم لشريط كاسيت يكفر المسيحيين، انفجر شغب في مدينة قلوب (في الدلتا بالقرب من القاهرة).<sup>17</sup> اضطر الوزير ان يعيد هذه المدرسة وطالباتها الى مدرستهن، منكرا بالكامل انه فعل ذلك تحت ضغط من احد.<sup>18</sup>

العزف المنفرد للمثقفين "ضد الارهاب" في معرض القاهرة للكتاب في يناير الماضي برهن فقط على كيف ان المثقفين العلمانيين يمين ويسار جاهزون للعمل وفق اصول اللعبة بين ايدي الحكومة.<sup>19</sup> الاستثناء كان المحامي العمالي نبيل الهلالي، الذي انتقد بشدة ارهاب الدولة عندما دُعي "ربما عن طريق الخطأ" لجلسات الحوار التي تنظمها اجهزة الدولة الثقافية في معرض الكتاب.<sup>20</sup>

## الطريق الثالث

هل فات الأوان؟ هل ما نشاهده هو ترتيبات سوف تؤدي الى استيلاء الاسلاميين ام العسكريين على السلطة؟ هل يستطيع النظام امتصاص كل ذلك؟

15 الأهرام 4 ديسمبر 1992

16 انظر فهمي هويدي في الأهرام، 2 فبراير 1993، وفي 16 مارس 1993.

17 الأهرام، 9 و 15 مارس 1993

18 الأهرام، 19 و 27 مارس 1993

19 للتعرف على نقد ليبرالي للمبطلين من الليبراليين، انظر ايمن نور، "القوى الليبرالية وأزمة الحقيقة المصرية"، الوفد، 17 فبراير 1993.

20 للتعرف على نقد يساري اخر للحكومة، انظر محمد رضا محرم، "لا تستطيع خداع كل الناس"، الأهالي 10 فبراير 1993. وانظر ايضا مقالته "الاندفاع في الاتجاه الخطأ"، الأهالي 23 ديسمبر 1992.

لا يجب ان تسود أي اوهام حول شرعية او قدرات النظام الحالي، سوى قدرته على تزوير الانتخابات واستعراض قواته الأمنية. كان لدى الشاه [إيران] هذه القدرات. انجازات النظام لا تتضمن القدرة والكفاءة على استيعاب الارهابيين وتدميرهم. قوة الارهابيين هي قدرتهم على تعرية وفضح ضعف النظام، الضعف الكامن خلف ستار من قوى الشرطة والأمن. الضعف الذي يكمن في عجز النظام عن الانتصار في انتخابات نظيفة، ورفضه للتشارك في السلطة حتى مع مؤيديه. نفس الشخصيات تقبض على كرسي السلطة لمدى غير محدود. حالياً يستعد الرئيس نفسه لفترة رئاسة ثالثة تمتد ست سنوات. بلغ الفساد في مصر مستويات غير مسبوقة. وصف احد النقاد، من داخل مؤسسة الحكم، الفساد الجاري بأنه فساد "بلا لجام".<sup>21</sup>

بلغت قدرة النظام على دمج الاجيال الاصغر سنا في الاقتصاد السياسي لمصر ادنى مستوياتها. ما تتلقاه هذه الاجيال من تعليم هو تعليم رديء، وهم مرغمون على دفع ثمنا مقابله رغم انه اسميا تعليم مجاني. بعد التخرج، يلتحقون بصفوف ثلاثة ملايين عاطل عن العمل. يجدون صعوبة في الزواج، حيث ان الحصول على مسكن امر عسير وغير متاح سوى للأثرياء. الاغتراب الذي يعانون منه يجعلهم يحلمون باليوم الذي يغادرون فيه بلادهم، ويجعلهم مستقبليين جيدين لمذاهب التمرد. ربما لا يكون كل اعضاء المتطرفين الاسلاميين عاطلين عن العمل، ولكن البطالة تغذي مناخا عاما من الاحباط ينمو من خلاله التطرف. كان عمر المتطرفين الحاليين نحو 10 سنوات عندما اغتيل انور السادات. لم يفشل النظام فقط في تسوية وإنهاء صدام الاسلاميين مع الدولة في اقصى صورته دموية، ولكن معدل تجنيد الشباب من اجل العنف قد تسارع. طريق الخروج واضح بئ. يمكن النفاذ من الاستقطاب الحالي من خلال برنامج اصلاح شامل واسع المدى. على المستوى السياسي يعني ذلك انتهاء احتكار السلطة، تغيير الدستور، انتخاب رئيس الجمهورية وليس مجرد الاستفتاء بلا او نعم. ليس من الصعب تصور برلمان تعددي في البلاد؛ هناك 440 كرسي، عدد كاف ليضم كل الطيف السياسي للقوى والتيارات السياسية في البلاد. اجراء انتخابات محلية، ترك النقابات العمالية والمهنية وحدها دون تدخل الدولة في شئونها، والاكثر أهمية دمج الجسم الاكبر من الاسلاميين في النظام عن طريق اضافة الشرعية على حزب اسلامي لا يتبنى العنف (الاخوان المسلمون هم الخيار الواضح).

حتى نشدذ الهمم والمعنويات، علينا شن حملة جديده ضد الفساد. بعض الوزراء الحاليين مرشحون بشكل جلي لان يقفوا داخل قفص الاتهام داخل قاعات المحاكم. انه شرط مسبق.<sup>22</sup> تطهير الحزب الحاكم يمكن ان يمهد الطريق نحو حكومة ائتلافية، تضم الاسلاميين المعتدلين. سوف يرسى ذلك الاساس لتوسيع فرص خلق الوظائف بالنسبة للشباب. فقط بعد ترتيب البيت الداخلي يمكن لمصر ان تلعب دورا اقليميا يتناسب مع طاقاتها الكامنة: المساهمة في حل المشكلة الفلسطينية وتسوية خلافاتها مع ايران والسودان لتخفيف التوتر الاقليمي. لا بديل اذا كان لمصر ان تتجنب الاختيار على طريقة هوبسون بين الأسلمة بالنموذج الجزائري او بالنموذج الإيراني. الطريق الثالث المصري يجب ان يكون طريق **الاصلاح والمصالحة**. المواجهات المستمرة، التحلل المدني والتدخل العسكري سوف يجعل المستقبل اشد صعوبة. ربما يكون على اصدقاء مصر المهمومين بشأنها ان يذكروا حكام القاهرة الحاليين بالثمن الفادح للتغيير بعد بفوات الاوان.

21 تحسين بشير، "رسالة مفتوحة الى الرئيس مبارك"، الوفد، 3 سبتمبر 1992.

22 البديل هو "الهروب" خارج البلاد "سرا"، كما اقترح ابراهيم الدسوقي اباطة في الوفد، 25 فبراير 1993.

## مصر قبل وبعد 11 سبتمبر 2001:

مشاكل التحول السياسي في وضع دولي معقد

احمد عبد الله رزة

مارس 2003

معهد الاستشراق الالمانى

im Verbund Deutsches Ubersee-Institut



## المؤلف:

احمد عبدالله: ولد في مصر في يناير 1950؛ بكالوريوس العلوم السياسية من جامعة القاهرة 1973؛ درجة الدكتوراة من جامعة كمبردج 1984؛ محاضر في جامعات مختلفة في مصر، والولايات المتحدة، والمانيا، واليابان الخ؛ مدير مركز الجيل للشباب والدراسات الاجتماعية، القاهرة (تأسس عام 1994) وانخرط في الكفاح ضد عمل الاطفال؛ مؤلف طيف واسع من الدراسات العلمية منها الحركة الطلابية والسياسات الوطنية في مصر (لندن 1985)، عمل الاطفال في مصر (اليونيسيف القاهرة 1986)، اطفال الشوارع يتكلمون (بالعربية، القاهرة 1995)، الانتخابات البرلمانية في مصر (امستردام 1995)، الوطنية المصرية (بالعربية، القاهرة 2000)، الحركة العمالية المصرية والتغييرات الكوكبية (بالعربية، المحروسة القاهرة، 2002).

يشكر المؤلف معهد التنمية الاقتصادية (منظمة التجارة الخارجية اليابانية) في تشيبا، اليابان للتسهيلات الاكاديمية التي وفرتها لانجاز هذه الدراسة.

## مصر قبل وبعد 11 سبتمبر 2001:

### مشاكل التحول السياسي في وضع دولي معقد

#### مقدمة:

ربما يكون من السهل رواية أحداث التطورات السياسية في مصر بعد 11 سبتمبر 2001. ولكن الصعب هو ان نفهم ديناميكيات ما يجري في مصر دون الرجوع، ولو حتى بنظرة، لما كان يتراكم على الاقل منذ حرب الخليج 1990/1991. وبكلمات أخرى ما كان يتراكم منذ نهاية النظام العولمي العتيق بسقوط جدار برلين في 11 نوفمبر 1989. لذا، فيما بين الحادي عشر من سبتمبر والتاسع من نوفمبر تقع قصة بلد يحافظ بشكل مدهش على نظامه العتيق ولا يستبدله بنظام مجدد. أدار النظام القائم في مصر أموره لامتصاص صدمات مثل صدمة التحول العولمي بعد التاسع من نوفمبر (حقبة الجدار)، وصدمة حرب الخليج، وصدمة صراعات الشرق الاوسط في فلسطين والعراق، وأخيرا صدمة التحول العولمي الثاني في اعقاب الحادي عشر من سبتمبر (حقبة برجى التجارة). بشكل كروكي، يتطلب فهم الحالة المصرية خطوط استرشادية ثلاثية الابعاد للبلاد ونظامها الجاري: الاقتصاد (على الاقل على ما هو عليه الآن)، والمجتمع (بمشاكله الاجتماعية العميقة الجذور والضميم الاجتماعي الواسع الذي يؤثر على النسيج الاجتماعي)، وأخيرا الحياة السياسية لنظام امة ودولة تتحرك، او تقف ثابتة، وسط رياح عاصفة نتيجة للتطورات العولمية والإقليمية.

من هنا، تلك هي معالجة لسياسة بلد في اطار عمل مثلث الرؤوس: من السياسات الدولية الأوسع ومن الجغرافيا السياسية، والسياسات الداخلية. من مثل هذا المنظور، ربما نستطيع اختبار الفرضية التالية: بينما يبرهن النظام المصري على متانته وقدرته على تحمل الاضطرابات قصيرة المدى (مثل تلك التي ذكرت اعلاه) فانه قد لا يبرهن قدرته الى نفس المدى على التعامل مع الاثر التراكمي لمثل هذه التطورات. ونتيجة لضعفه البنوي (الاقتصادي والاجتماعي والسياسي)، لن يستطيع النظام القائم امتصاص صدمة طويلة المدى بل الاخرى انها سوف تبتلعه هو. أي أنه عند نقطة معينة في المستقبل القريب سوف يكون امرا اجباريا وجود نظام مجدد في مصر اوائل القرن الواحد وعشرين.

## الاقتصاد

مصر هبة النيل... تلك هي المقولة التاريخية التي كانت تناسب ربما العصور القديمة. في يومها الحاضر مصر لا تعتمد على اقتصادها حتى تحافظ على صورتها كبلد مهم. انها تهين اقتصادها لتحافظ على تلك الصورة. اقتصاد مصر هو نقطة الضعف الاكبر من نقاط ضعفها. من بين القوى الاقليمية الاكبر في الشرق الاوسط (تركيا وإيران وإسرائيل والسعودية ومصر نفسها) تتقدم مصر البلاد ذات الاغلبية السكانية عربية الاصل (حوالي 70 مليون مصري من 280 مليون عربي). وعكسيا، ناتجها المحلي الاجمالي (اقل من 100 بليون دولار امريكي) هو الاقل (بمعدل نمو مترنح في السنوات القلائل الماضية لا يكاد يتناسب مع معدل النمو السكاني). من هنا، نجد الدخل المتدني بالنسبة للفرد في مصر (حوالي 1530 دولار سنويا في 2001، طبقا لاحصائيات البنك الدولي)<sup>23</sup> والمؤشرات المتدنية في تقرير التنمية البشرية (التي يتراوح ترتيب مصر بين 109 و 119 من كل بلاد العالم)<sup>24</sup> في الاعوام القليلة الماضية.

من اجل الحفاظ على بقاء سكانها (الذين يقطنون وادي النيل والدلتا في مساحة اقل من واحد على عشرة من اراضيها الصحراوية اساسا) لا تعتمد مصر على الزراعة ولا على الصناعة. رغم ان مصر كانت تاريخيا بلدا زراعيا تسكنها اغلبية من الفلاحين وتزود العالم بنسبة 70% من قطنها طويل النيلة. اكثر من ذلك، قاومت مصر محاولتين سابقتين للتصنيع: الفترة ما بين الحربين العالميتين والفترة بعد ثورة يوليو 1952 التي قادها جمال عبد الناصر، خصوصا في اوائل الستينات تحت شعارات اشتراكية.

حتى تطعم وتعلم وترفه شعبها اعتمدت مصر على ثلاث مصادر للدخل القومي:

- السياحة
- تحويلات العاملين المصريين بالخارج
- المواصلات (قناة السويس)

مصدر رابع لبعض الوقت هو صادراتها النفطية رغم ان مصر ليست واحدة من المصدرين الكبار. مؤخرا انكشفت مصادر النفط، وتنتظر الانعاش باكتشافات جديدة، خصوصا في مجال الغاز الطبيعي. ولا يقل فداحة انكماش قطاع البترول هذا عن باقي القطاعات الثلاثة الأخرى حيث ان كل منها يعتمد على عوامل خارجية فوق سيطرة اللاعبين القوميين. السياحة (بخمسة ملايين ونصف مليون زائر سنويا في افضل حال مقارنة بعشر اضعاف هذا الرقم في البلاد المجاورة المطلة على البحر المتوسط مثل فرنسا واسبانيا وايطاليا) قد تأثرت بالارهاب (كما حدث بعد مذبحه

23 لمطالعة ملخص عن المؤشرات السكانية الاساسية ارجع: محمد عبد الفضيل: قراءة للنتائج الاولية للتعديد السكاني 1996، الاهرام 11/10/1997. ولمطالعة ملخص لاحصائيات اكثر حداثة انظر المؤتمر الصحفي لرئيس الجهاز المركزي للتعبيثة العامة والاحصاء: الاهرام 8/5/2001.

24 عثمان محمد عثمان: الاصلاح الاقتصادي وعوائده الاجتماعية التنموية، الاهرام، 27/7/2001. في اوائل 2003، اعطى رئيس الوزراء المصري رقم 1400 دولار فقط كمتوسط دخل الفرد، الاهرام 29/1/2003.

الاقصر في نوفمبر 1997 وكما حدث مرارا مع كل نوبة من نوبات التوتر في الشرق الاوسط). تأثرت تحويلات المصريين العاملين بالخارج، خصوصا في دول الخليج، بالحروب والتوترات في البلاد المضيفة والتي تميل لإعادة هيكلة اقتصادياتها بشكل مناهض لمصالح العمالة المهاجرة. بالنسبة لعوائد قناة السويس، فإنها تعتمد على الطلب العالمي للمواصلات، خصوصا في قطاع تجارة البترول. المصدر الخامس الواضح لبقاء الاقتصاد المصري هو قدرته على اجتذاب المعونة والقروض الاجنبية.<sup>25</sup> وهذا تضارب مدهش مع قدرتها المحدودة على جذب الاستثمارات الاجنبية. التسهيلات التي تتمتع بها مصر في شروط المنح والقروض هي مئثار حسد بلاد العالم الثالث الاخرى. تُمنح مصر مثل هذا الدعم بسبب دورها الهام في امن واستقرار الشرق الاوسط. بكلمات أخرى تباع مصر موقعها الجغرافي الاستراتيجي وما يمكن ان يمنحه هذا الموقع، بسعر اقتصادي، وخدمات سياسية لإشباع مطالب الاستقرار الاقليمي والكوكبي. مصر كانت ستصبح في اسوأ شكل لها، اقتصاديا، اذا لم يدفع المجتمع الدولي السياسي - والمالي كفالتها (نادي باريس)، الذي شطب حصة ملموسة من ديونها الدولية الثقيلة في اعقاب حرب الخليج 1991/1992، والتي وصلت مؤخرا الى مستوى حرج.<sup>26</sup> وما هو حرج بنفس المقدار العجز التجاري المزمع لمصر. تستورد مصر ما لا تقل قيمته عن 15 بليون دولار امريكي ولكن صادراتها لا تتعدى مبلغ 5 بليون دولار حتى تاريخه. اصلاح هذا الفرق، وتخفيض الواردات، وزيادة الصادرات<sup>27</sup> الخ، ما زال يجلب الغم في الجدل حول الاقتصاد في البلاد.

تفرع في تلك اللحظة الجدل الاقتصادي إلى اتجاهين يندران بالكارثة. الأول، بدلا من الحديث عن فائض المدخرات في البنوك التجارية بالبلاد، دعك من الخارج<sup>28</sup>، والتي تنتظر توجيهها في قنوات الاستثمار السليم، تحولت المناقشات الى مشكلة نقص السيولة. تتأخر الحكومة في دفع ديونها الداخلية، اقطاب البنزين لم يدفعوا ديونهم المستحقة، ونتيجة لذلك، عانى النظام المصرفي وتعرض لفرض احكام ولوائح عمل جديدة وتشديد في التدقيق على عمله.<sup>29</sup> ثانيا، النجاح المالي الاكبر للحكومة، استقرار سعر تغيير العملة بين الجنيه المصري والدولار الامريكي انتهى بعد اكثر من

---

25 عن ذلك والقضايا المتعلقة بالعلاقات الاقتصادية الخارجية المصرية انظر على سبيل المثال ملف الاقتصاد المصري وصلاته الخارجية في: احوال مصرية، الاهرام، رقم 17، صيف 2002. عن المشاكل المحيطة بالحكومة وصندوق النقد الدولي 2001، الوفد، 4/1/2001 و 11/1/2001. ايضا: حوار مع ابراهيم شحاتة (نائب رئيس البنك الدولي السابق)، الاهرام، 31/1/2001.

26 انظر المناقشات المحتمدة للسياسة الاقتصادية في جلسات مجلس الشورى (الغرفة التشريعية الثانية في البرلمان) في: الاهرام، 22/12/2002.

27 لترويج الصادرات انظر مقالة وزير الاقتصاد: يوسف بطرس غالي: تشجيع الصادرات. توجه اجتماعي وليس مجرد سياسات، الاهرام، 29/5/2000. انظر ايضا ملخص التقرير الرسمي للجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء: روزا اليوسف، 12/1/2002.

28 تقديرات فلكية لودائع المصريين تضع مصر على قمة قائمة المودعين في العالم الثالث الذين يضعون ودائعهم في بنوك خارج بلادهم.

29 للدفاع عن سياسة الحكومة الاقتصادية وتدابيرها المتشددة انظر خطاب رئيس الوزراء لرؤساء تحرير الصحف: الاهرام، 29/8/2000. ايضا حوار: الاهرام، 11/11/2000.

عقد من الزمان. تم تخفيض سعر الجنيه عددا من المرات (فقد نحو ثلث قيمته في السنتين الاخيرتين)، واستخدمت احتياطات الدولار الامريكى في البنك المركزي من اجل مزيد من التخفيضات في سعر الجنيه (استهلك نحو الثلث من الاحتياطي مرة اخرى) وظهرت السوق السوداء للعملات الاجنبية مرة اخرى.<sup>30</sup> ازمة السيولة، ازمة الدولار وظهور الازمة العقارية (فرضت الحكومة تشريعا جديدا لتنشيط السوق العقاري بعد ركوده) ليست مجرد ازمات اقتصادية بالمعنى الحرفي. انها نذير تغير سلبي في موقع الطبقة الوسطى على الاخص.<sup>31</sup> هذه الطبقة تمثل في نفس الوقت صمام الامان وأيضا الخطر الذي يهدد بقاء انظمة مثل النظام المصري. وطالما الجسم الاساسي من اعضاء تلك الطبقة يشعرون بأمان وجود سطح فوق رؤوسهم وبعض النقود في الايام المطيرة داخل حساباتهم البنكية، فإنهم لا يتمردون. ولكن عندما تنهار قيمة كلا منها (الثقة السكنية في سوق العقارات، والقدرة الشرائية للنقود المودعة بالبنوك) بسبب انخفاض قيمة العملة او هبوط اسعار الارصدة تتخذ وجهات نظر الطبقة الوسطى منحى اخر. فهي قد تبدأ، شاعرة بما تكابده الطبقات الأدنى، التحرك في اتجاه اكثر سخطا وأكثر تمردا. ولكن ذلك يعتمد على الكيفية التي ينعكس بها الاداء الاقتصادي السيئ كما في مصر على احوال المعيشة في المجتمع وديناميكيات نظامها السياسي. اثر الاحداث الأساسية للحادي عشر من سبتمبر على الاقتصاد المصري كان هو تعميق الازمة التي كانت موجودة توا. بينما تحملت البلاد خسارة تقدر بـ 2.5 بليون دولار (منهم 1.6 مليار في السياحة)،<sup>32</sup> رحبت النخبة الحاكمة عذرا جديدا يبرر اداءها الاقتصادي السيئ.

عند الحديث عن الاقتصاد في مصر لا يستطيع المرء تجنب اضافة حاشية درامية. كيف يستطيع هذا الاقتصاد الاستمرار مع مثل هذا الاداء الكارثي بينما يوجد هنا في مصر بعض من الناس الارفع تأهيلا وموهبة في العالم الثالث وربما في بعض الحالات على مستوى العالم المتقدم أيضا؟ حقق المصريون في المنفى الاقتصادي، بهذا المعنى، انفسهم بتميز. انهم علماء بدرجة جيدة في العالم الجديد أمريكا كندا، استراليا)، وبناء جيودن للمباني وتشهد جميع الدول الحديثة في الخليج ذلك، ومزارعون جيودن في العراق، انهم مهنيون جيودن في عديد من المجالات في بلاد عديدة. لماذا لا يستطيعون النجاح بنفس القدر في بلادهم نفسها ويرفعون من شأن اقتصادهم الفقير؟

---

30 عن مشكلة تحويل العملة والقضايا المتعلقة بها انظر مقالات عبر الفتح الجبالي واحمد السيد النجار في الاهرام، 9/10/2000. ولمزيد من التفاصيل انظر قسم ازمة تحويلات العملات للجنيه المصري في التقرير العربي الاستراتيجي 2001، الاهرام، مايو 2002.

31 انظر مثلا: محمود المراغي: الصيحة الاخيرة للطبقة الوسطى، روزا اليوسف، 29/12/1997. انظر ايضا الملف الخاص حول الطبقة الوسطى في دورية مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية بالاهرام: احوال مصرية، رقم 1، 1998.

32 10 الحياة، 3/11/2001. قدر وزير الاقتصاد المصري خسارة مصر بحوالي 10% من الناتج المحلي الاجمالي (الاحرار، 19/10/2001). عن مؤتمر شرم الشيخ لانقاذ مصر من ازمته بواسطة المانحين والمقرضين انظر تفاصيله في: وزير الدولة للشئون الخارجية: الاهرام، 26/1/2002 و 2/2/2002. انظر ايضا: احمد السيد النجار: الاقتصاد المصري واثار العاصفة الامريكية، الاهرام 22/10/2001. وياسر صبحي: الاستثمار الاجنبي في مصر يتخطى حاجز 9/11، الاهرام، 22/12/2002. بالانجليزية انظر: الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية، الاهرام، 2002.

اجابة هذا السؤال تقع عند اعتاب النخبة السياسية الادارية للبلد. النخبة الحاكمة في مصر، التي تهيمن عليها بيروقراطية الدولة (الموظفين)، تمتلك حذا قليلا من الرؤى ووفرة من الفقر الاداري ومن الاعذار لأدائها الكارثي. ولكن مرة اخرى انها قضية سياسية اجتماعية.

## المجتمع

ينعكس فقر الاقتصاد المصري في ثلاثة اشكال من الفقر المجتمعي. أولاً، فقر الفكر الاداري للدولة في كلا من مؤسساتها الحكومية وفي القطاع العام الاقتصادي الواسع والمملوك للدولة. ثانياً، الفقر المطلق لغالبية السكان.<sup>33</sup> وثالثاً، الفقر الاخلاقي في ادارة العلاقات الاجتماعية بين الافراد بعضهم البعض وبين الجماعات بعضها البعض داخل المجتمع على كلا من المستوى المحلي والقومي.

نقص الموارد، بشكل يمكن فهمه، في اقتصاد نام هو المسئول الاكبر عن خلق الفقر الاقتصادي. ولكن فقر الفكر الاداري هو، بدوره، شريك ومولد للمزيد من الفقر. الإنتاجية، وحسابات التكلفة مقابل الفعالية، وتصحيح الاخطاء عوامل لا تقل اهمية عن توزيع الدخل القومي نفسه. يتسبب فقر الفكر الاداري في زيادة معاناة الفقير. بعض المجتمعات افضل من غيرها في ادارة معيشتها بنفس الحجم من الموارد الضيقة. سوء ادارة هذه الموارد الضيقة يضاعف من الفقر المتسبب عن هذه الموارد المحدودة في المقام الاول.<sup>34</sup> في نفس الوقت، الفقر المطلق ينبع من اقتصاد غير تنافسي، يجلب معه، للمفارقة، مجتمعا شديد التنافسية بالمعنى السلبي. يكافح الناس من اجل البقاء بموارد محدودة تجبرهم على منافسة همجية. ولو تمت ادارة هذا الصراع بشكل سيء، مرة أخرى سوف تكون النتيجة النهائية انهيار السلوك المدني، وانتشار الفقر الاخلاقي. هذه الحلقة الخبيثة هي قصة مصر الحزينة مؤخرًا. بعد تعرض امريكا لمأساة سبتمبر بنصف سنة، تعرضت مصر لمأساتها الخاصة؛ تلك المرة ارتكبت المأساة أيادي غول الإهمال ولم تكن بفعل الارهابيين. آلة الدولة التي كانت قد نجحت في حربها على الارهاب فشلت بشكل كارثي في حماية ارواح مواطنيها في حادثة درامية: مات مئات من الركاب محترقين حين استمر قطار رحلتهم في السير عدة كيلومترات وقد اشتعلت به النيران بعد ان غادر محطة العاصمة القاهرة؛ سائق القطار غير مدرك لما يجري في سائر العربات والمشاهدون على جوانب طريق السكك الحديدية غير قادرين على ايقاف القطار او منع المأساة. التقذوات الرسمية تضع الضحايا في خانة المئات بينما شهود العيان يضعون ارقام الضحايا في خانة الآلاف حيث ان القطار كان مشحونًا بالآلاف ولم ينج من الحادثة إلا قلة خرجوا من الجحيم احياء. ما يهم هنا، بجانب خسارة ارواح بشرية بهذا القدر، هي الطريقة الوجدانية التي بدأت بها نيران قطار الصعيد حرق التسامح والرحمة داخل المجتمع المصري،

---

33 ليس فقط بالمعنى الكمي المتعلق بالخيز والزيد ومستوى المعيشة ولكن ايضا بالمعنى الكيفي المتعلق بمستويات التعليم والخدمات الصحية؛ هذان القطاعان اللذان انهارا بشكل خطير في مصر في السنوات السابقة. عن المصاعب وأيضاً عن الانجازات في قطاع التعليم انظر على سبيل المثال تصريحات وزيرين للتعليم: الأهرام 29/9/2000.

34 عن المؤلفات الغزيرة حول الفقر في مصر انظر مثلا عدة مقالات قليلة تلخص المشكلة في التسعينات: نبيل عبد الفتاح: نحو صندوق قومي للتنمية مدن اكوخ الصفيح، الأهرام 25/6/1993 صبحي البحيري: مشاريع الصندوق الاجتماعي تزيد الفقر. معظم المصريين فقراء، الشعب، 20/3/1998 و 27/3/1998؛ فهمي هويدي: حظوظ الاغنياء والفقراء، الأهرام، 24/4/2001. انظر ايضا ملخص للتقرير البرلماني الذي يعترف بدرجة الفقر في البلاد: محمد الطويل: تقرير مجلس الشعب عن التنمية الاجتماعية، مجلة اكتوبر 10/9/2000.

على الأقل وسط النخبة.<sup>35</sup> حادثة القطار المأساوية لم تكن مجرد حادثة. انها تمثل ذروة اعراض تفكك النظام الاجتماعي في مصر في نهاية القرن العشرين. وقوع هذه الحادثة وردود الافعال التي اثارها سلطت الضوء على السؤال الذي دأب الناقدون في داخل وخارج مصر على طرحه: ما الذي حدث للمصريين؟<sup>36</sup>

تعاملت التحقيقات في حادثة قطار الصعيد مع كلا وجهي العملة: الاهمال الذي ارتكبه المسؤولون عن هيئة السكك الحديدية المملوكة للدولة والاهمال الذي ارتكبه المواطنون/الركاب الذين لم يطيعوا لوائح الامن والسلامة اثناء السفر. بعث الحكم الذي اصدريته المحكمة في هذه القضية رسالة انذار شديد لكامل نظام الدولة. برأت المحكمة الموظفين الصغار الذين اتهموا في القضية وقدموا الى المحاكمة ووجهت الاتهام الى المتورطين الكبار بدلا منهم. اوقفوا التستر... كانت هذه صيحة المحكمة. إي انهوا القانون الذهبي السائر للنظام السياسي الاجتماعي - "التستر".

مع تصاعد اخر في الاحداث وقع بعدها بأشهر قلائل، مصادفة قبل سبتمبر 2001. مزيد من النيران في صعيد مصر. حادثة (جنائية) لثأر عائلي او واقعة (سوسولوجية) للعنف الاجتماعي. تضمن الحادث قتل 22 شخص، ومن ضمنهم طفل عمره 12 عام، اخذا بثأر عائلة لمقتل احد رجالها في السابق. لقد كان ذلك تطورا مُحدثا على الواقع الاجتماعي في مصر. لان الثأر العائلي تأسس لمئات السنين، على مبدأ الرأس بالرأس (وعدم قتل الاطفال).

انها وظيفة الخبراء ليوصفوا الحادث من خلال المناخ الاجتماعي العام الذي يحتضن عنفا زائد عن الحد بشكل متطرف.<sup>37</sup> ولكن ذلك كان شيئا مُحدثا. في السنوات السابقة كان هناك جم غفير من الكتابات التي حذرت من انتشار

---

35 بعيدا عن الكتابات العنيفة الانتقاد في صحافة المعارضة والصحافة المستقلة انظر كتابات لا تقل انتقادا في الصحافة الرسمية نفسها. مثلا، الاهرام اليومية في 2002: صلاح الدين حافظ: ما هي قيمة الانسان، فاروق جويده: بسطاء الناس في الدرجة الثالثة (1/3/2002)؛ فهمي هويدي: هوامش على دفتر الكارثة (27/2/2002) السيد ياسين: دراسة حالة للسلوك المصري (9/3/2002)؛ مغاوري شحاتة دياب: نحو مقارنة جديدة لقراءة مشروع النهضة القومي (20/3/2002)؛ سلامة احمد سلامة: رسالة بليغة (20/3/2002).

36 هذا عن حق اسم كتاب لجلال احمد امين (دار الهلال، عدة طبعات 1999 - 2001). ايضا مقالة لفهمي هويدي بنفس الاسم (الاهرام، 15/9/1998). ظهرت تنويعات من هذا الاسم في كتب لعدد من المؤلفين الذين عالجوا التغير في الشخصية المصرية. من فيض الكتابات الصحفية التي تصرخ ضد تحلل المسلك الاجتماعي في مصر انظر مثلا رسالة العالم المصري بالخارج الذي قرر العودة للحياة في مصر ولكنه غير رأيه بعد ما راه في القاهرة من سمات الفوضى والفساد والقيح والنفاق في وسائل الاعلام وتراجع المعرفة في النظام الجامعي طبقا لتوصيفه، سلامة احمد سلامة: مصر في عيون ابناءها، الاهرام، 9/9/2000. ايضا انظر المواصفات الخمسة عشر للسلوك الاجتماعي الصحيح التي يقدمها مؤلف اخر: عبد الرحيم كامل: الدرس، الاهرام، 9/11/1999. من المقالات النقدية العديدة في الصحف طوال عقد انظر مثلا: السيد ابو النجا: غياب الاخلاقيات في الشارع المصري، الوفد، 9/4/1992؛ الشافعي بشير: ماذا جرى للناس في مصر؟، الشعب، 2/2/1993؛ حسين احمد امين: رد الفعل، الاهالي، 10/2/1993؛ محمد صلاح عبود: سمات الشخصية المصرية، الاهرام، 18/2/1999؛ سلامة احمد سلامة: الاستسلام للقمامة، الاهرام، 4/10/1999؛ كريمة كمال: ضرورة الاصلاح الاجتماعي، الاهرام، 14/2/2000؛ عبد العظيم رمضان: ميت نما: حادثة ودروس، الاهرام، 18/3/2000؛ هشام صادق: هل فقد المصريون ميراثهم الاخلاقي؟، العربي، 8/4/2001؛ نبيل عمر: لا شيء يحدث في مصر الان: صوت الامة، 2/5/2001؛ عبد الرحمن الابنودي: العقد، الاسبوع، 12/2/2001؛ عبد الحليم قنديل: من اجل الوطن، العربي، 29/7/2001؛ امين هويدي: مسامير محلولة... من سوف يربطها؟، الاهرام، 8/1/2002؛ حسين احمد امين: خواء في مصر يدعو للعنف، الحياة، 4/7/2002؛ احمد منصور: في شوارع القاهرة، الاسبوع، 19/8/2002 و 26/8/2002.

37 لتحليل واف انظر بالإنجليزية ضياء رشوان: 22-28.8. Murder Foretold, Al-Ahram Weekly. وانظر ايضا مقالته بالعربية: صعيد مصر... قصص من الثورة الى الإجرام العربي، 25/8/2002. وايضا عبد الرحيم علي: هل الاقتصاد المفتوح سببا لانفجار الاجرام؟، القاهرة، 27/8/2002.



العنف الاجتماعي السياسي المُركَّب. يتضمن هذا: الارهاب او العنف الإيديولوجي، ارهاب الدولة ضد المواطنين، خصوصا الوحشية والتعذيب البوليسي. اشكال جديدة من جرائم العنف، ومن السلوك العنيف للشباب في المدارس والتواطؤ العام مع العنف كقانون للسلوك الاجتماعي.<sup>38</sup>

## العنف

- افتتحت واقعة اغتصاب وسط زحام وسط البلد في القاهرة (ميدان العتبة) اعوام التسعينات كعقد جديد لمختلف اصناف العنف. يمكن تصنيف انواع العنف هذه في الشرائح الآتية:
- الارهاب او العنف الديني السياسي الايديولوجي، الذي وصل قمته في 1992/1993 وانتهى بصدام هائل بين الدولة والارهابيين. الدولة، وقد لجأت الى انتهاك حقوق الانسان والتدابير الاستثنائية لكسب المعركة.<sup>39</sup> بينما استمر الارهابيون يقومون بردود افعال متفرقة (خصوصا ارتكاب مذبحه الاقصر ضد السياح الاجانب في نوفمبر 1997). ولكن المد الاعلى لعملياتهم دفع الى نهايته.
  - عنف الدولة، ليس فقط في سياق مواجهتها للإرهابيين ولكن ايضا كنمط عام في التعامل مع مواطنيها. وحشية البوليس هي القضية في هذا الموضوع.<sup>40</sup> في محاولة للاعتراف الجزئي بذلك، في اوائل هذا العقد، تحملت الحكومة مخاطر تقديم عدد من ضباط الشرطة الى المحاكمة بتهم تعذيب المساجين (وقد برأتهم المحكمة لعدم كفاية الأدلة). فيما بعد، حدثت محاكمات فردية لضباط بتهم تعذيب المحتجزين في اقسام البوليس او الموقوفين تحت التحقيق في القاهرة وأماكن اخرى. ادين بعض الضباط وصدر بحقهم احكام بالسجن.

---

38 كمثال على علامات الخطر الاولى في بداية العقد انظر الاهرام: فهمي هويدي: القارة، 31/3/1992 ونبييل عبد الفتاح: صلصلة العنف، 7/4/1992. كتبت كلا المقالتان في الاعقاب المباشرة لواقعة الاغتصاب الشنيعة في مركز مدينة القاهرة (حادثة العتبة). لكتابات في نهاية العقد انظر مثلا في الاهرام: محمد نور فرحات: ملاحظات على مشهد الجريمة في مصر (28/4/2001)؛ محمد سلماوي: ظاهرة العنف... من اين تأتي ونبييل عبد الفتاح: فعالية القانون... من قوة التشريع الى قوة الاخلال بالنظام، (7/5/2001) وفهمي هويدي: قلق على الحاضر والمستقبل (29/5/2001)؛ عمر هاشم ربيع: الدولة، وقيم احترام القانون (23/7/2000) 1. انظر ايضا هاني اباد: الجريمة والعنف في المجتمع المصري، احوال مصرية، رقم 15، شتاء 2002.

39 عن المواجهات في تلك الفترة انظر مثلا: صلاح الدين حافظ: صعود وسقوط دولة امبابه، الاهرام، 16/12/1992؛ نبيل عمر: اسبوت تلخ قناع الخوف، الاهرام، 25/3/1993. انظر بالانجليزية: احمد عبد الله: الاسلاميون والدولة في مصر: من التأمير للمواجهة، تقرير الشرق الاوسط (MERIP)، يوليو-اغسطس 1993.

40 لقائمة من الامثلة نقلا عن الصحف الاخرى انظر: مجدي احمد حسين: سلسلة ارهاب البوليس، الشعب، 17/10/1997. ايضا مايسة نوح: جرائم ضباط البوليس، روزا اليوسف، 2/2/1998. انظر ايضا تقارير عن التعذيب في مصر التي وضعتها منظمات حقوق الانسان الوطنية والدولية (مثلا، خلف الابواب المغلقة: التعذيب في مصر، منظمة العفو الدولية، لندن).

- البلطجة، وكانت حتى الان ظاهرة تقليدية تزوي وتختمي، عادت للظهور على السطح مرة اخرى وأخذت تنتشر. الفتوات (او القبضايات) ينفذون بالقوة نظامهم الخارج عن القانون في الاحياء والشوارع، وأحيانا بالتواطؤ مع البوليس او اجهزة الدولة الاخرى.<sup>41</sup>
- الجريمة التقليدية وصلت الى مستويات اعلى من الوحشية والهمجية (اي التشويه والإيذاء الجسدي الفظيع، والحرق والتقطيع). هذه الجرائم التي كانت حتى الآن محدودة المجال، مثل قتل الاطفال لأبائهم والعكس بالعكس، اصبحت تتكرر تباعا وعلى فترات زمنية اقصر.<sup>42</sup> عدد الجرائم الشاذة والنادرة مثل جرائم القتل التي يرتكبها المحامون او وكلاء النيابة مثلا قد ازداد عددها.<sup>43</sup> هذا اضافة الى القتل الذي جرى في ناد لاحد رجال الاعمال كحادثة اركاديا مول.<sup>44</sup>

بجانب مناخ العنف وممارسته كما أوضحنا معالمهما في الاطار أعلاه، تبقى هناك سمتان هامتان للتفكك الاجتماعي في مصر: الفساد والطائفية. وبينما تتصل القضيتان ببعضهما اتصالا وثيقا بالسياسة فانهما يتخذان ابعادا اجتماعية اعرض حيث تنتشران في مجالات اجتماعية اوسع. في توسعهما السرطاني ينتقل الفساد والطائفية عبر اللوحة باعتبارهما ممارسة نظام حكم، ينتقل الفساد والطائفية من كونهما ظاهرتين متسترتين خلف النخب الى كونهما في الاخير ظاهرتين مقبولتين عند اقسام متزايدة من السكان. اصبحت هاتان الظاهرتان مرض اجتماعي ثقافي.

## الفساد

مثل كل المجتمعات البشرية، تعرف مصر الفساد منذ ان تعرفت على نفسها. ولا بدعة في ذلك. ولكنها تصبح بدعة جديدة عندما تصل الى مقياس غير مسبوق (كما وصفته على سبيل المثال مقالات لصالح الدين حافظ<sup>45</sup>، وفهمي هويدي<sup>46</sup>، وسلامة احمد سلامة<sup>47</sup>، وآخرون في صحيفة الاهرام الرسمية) او فساد بلا لجام (كما وصفه المرحوم تحسين

41 انظر مثلا: نيفين ياسين: عودة الفتوات، الوفد، 10/9/1991؛ عادل حمودة: البلطجية يسيطرون على مصر، روزا اليوسفن 21/4/1997؛ محمد جمال الديب: وباء البلطجة يغزو الشارع المصري، الاهرام، 30/3/2000؛ عبد العظيم رمضان: الشارع المصري وقبضة الامن، الاهرام، 15/4/2000 (محمد هندي: البلطجة تهدد الشارع المصري، الاهرام، 21/8/2002).

42 انظر: التقرير الاستراتيجي العربي 1997، الاهرام، 1998. ملخص عن القسم الذي يتعامل مع الجريمة في التقرير، انظر محمود سلطان: القتل اصبح جريمة سهلة، الشعب، 28/9/1999؛ عادل ابو زهرة: اسباب العنف في المجتمع، الاهرام، 2/7/2001.

43 مريد صبحي: جرائم حراس القانون، الاهرام، 10/2/2001.

44 سعيد الشحات: امراء مصر الجدد، المصور، 27/4/2001.

45 مثلا مقالاته عن الموضوع: محاربة الفساد... مسئولية الجميع، الاهرام، 4/3/1992. في مقاله هذه لاحظ الكاتب: انه بينما كان البرلمان الياباني يناقش بجدية الفساد كان برلماننا ينهي بشكل فجائي النقاش حول الفساد.

46 على سبيل المثال مقاله عن الموضوع: عندما تكون القوة فوق الحق، الوفد، 11/5/2001.

47 انظر حملته الصحفية عن اساءة استخدام السلطة في منتجع الاغنياء الصيفي مارينا بالساحل الشمالي (عدة اعمدة في جريدة الاهرام في صيف 2000).

بشير في مقالة بالجريدة المعارضة الوفد<sup>48</sup>، او فساد يتطلب تصريحا من القمة (كما طالب بذلك المرحوم حلمي مراد، في الجريدة المعارضة الشعب، والذي دفع ثمنا لقوله ذلك بذهابه الى المعتقل). في كلمة، الفساد الاقفي التقليدي الذي ينتشر هنا وهناك قد تحول اكثر لان يكون فسادا رأسيا ينساب من القمة. هذا النوع من الفساد يمكن تفتيته الى الشرائح التالية:

- الفساد داخل الطبقة السياسية، بداية من رأس السمكة<sup>49</sup>. انه يتضمن عمولات سمسرة تجارة السلاح، والبتترول، ومواد الطعام الأساسية والمعاملات التجارية الاخرى التي تقوم بها الدولة. انها تمتد لمنح تراخيص الدولة في المجالات المختلفة من قطاع التشييد والبناء الى وسائل الاعلام بجانب تداول العرض والطلب في قطاع الزراعة بواسطة الحكام الريفيين ورعاتهم الوطنيين. احد اكبر واغلى الهبات للنخب السياسية الفاسدة هي اراضي الدولة والمباني السكنية المتعلقة بالثروة العقارية، حيث يُستخدم اغراق الاسعار لتسهيل الاستيلاء السلطوي والتوزيع على الزبائن. تتضمن الامثلة التي تضرب على ذلك اراضي سيناء ومنحها للجنرالات السابقين في الجيش، والاستخبارات والبوليس، وقرى الساحل الشمالي غرب الاسكندرية للمحاسبين العسكريين والمدنيين من النخب السياسية، وأماكن اخرى متميزة في البلاد (مثل فيلات الوزراء في ابو سلطان في منطقة قناة السويس).

هنا نتوقف الصحافة ولا تصل الى الرؤوس الكبيرة. فقط الصف الثاني من القيادة السياسية يمكن ان يشار اليه او يتناوله الجدل حول الفساد. الصف الاول يمكن تناوله فقط بالهمس، او بالنكات<sup>50</sup>، او بملاحظات ملتوية قليلة تقال شفاهة<sup>51</sup> او كتابة<sup>52</sup>. لقد تناولت الصحافة حقا فساد الوزراء والمحافظين، ورجال الصف الثاني في مؤسسات الفساد

---

48 تحسين بشير: خطاب مفتوح الى الرئيس مبارك، الوفد، 3/9/1992.

49 علاء الاسواني: الحديث عن رأس السمكة، العربي، 29/4/2001. وانظر ايضا روايته عمارة يعقوبيان التي تشير ضمنا الى فساد كبار رجال السلطة.

50 معظم النكات تدور حول الابن الاكبر للرئيس، علاء مبارك.

51 انظر الجدل الكلامي، في لقاء اكاديمي بجامعة القاهرة، بين الاكاديمي احمد عبد الله رزة واسامة الباز (مدير مكتب الرئيس للشئون السياسية) عن قضية النكات على علاء مبارك. "هل هي دخان من غير نار؟" هذا ما تساءل عنه احمد عبدالله. وكانت اجابة مستشار الرئيس التي استمرت عشر دقائق "نعم" ملتوية.

52 مثلا: عادل حمودة: اللعبة الاخيرة لصفوت الشريف (نائب رئيس الوزراء والسكرتير العام للحزب الحاكم)، العربي، 30/7/2000.

المدنية الهامة<sup>53</sup>، مع بعض من اولئك الرجال ذهبوا الى ساحات القضاء وصدرت بحقهم احكام او اطلق سراحهم او اعيد تأهيلهم.<sup>54</sup>

- فساد طبقة الموظفين من السلطات التنفيذية في البيروقراطية الحكومية وهيئاتها المختلفة. انه احد اقدم اشكال الفساد وأكثرها شيوعا والتي يراها المواطنون نسقا طبيعيا للأمور. كثير من موظفي الدولة هم فاسدون يكاد يكون فسادهم بحكم تعريف وظائفهم، ومن الواجب ألا تكون هناك دهشة امام ذلك.<sup>55</sup> ولكن سبب المظالم الاخيرة هو الحجم غير العادي الذي اصبح به الفساد عرفا اعتياديا.<sup>56</sup> من ناحية أخرى يمس الفساد حياة المواطنين بدرجة متسعة حيث ان مصر تحكمها دولة شديدة المركزية تتدخل في تفاصيل حياة مواطنيها اليومية. اليوم اصبحت كلفة هذا الدور المتسع باهظة، ليس فقط بمعيار الرشاوى التي يجب دفعها هنا وهناك لموظفي الحكومة<sup>57</sup> ولكن ايضا بمعيار الخطر الذي تتعرض له حياة المواطنين نفسها. بسبب فساد موظفي الدولة، الفاتورة المدفوعة لضحايا الكارثتين الطبيعيتين، زلزال 1991، وسيول 1994 (انهيار المدارس مثلا) كانت اكثر كلفة. شذوذ فساد التسعينات يتبدى بشكل اكبر في الافساد الذي تم في ساحة كانت بشكل معتاد عفيفة. من المحتم ان تحتفظ البيروقراطية العتيقة بسجلات مواطنيها الاساسية التي تحت يدها منظمة تنظيميا جيدا. وثائق الميلاد والوفاة والزواج والطلاق تُرَوَّر لقاء رشوة للقائمين عليها أنفسهم موظفي الدولة<sup>58</sup>. حاميها... حراميتها، كما يقول المثل الشعبي المصري. وذلك يؤثر على عمل النظام القضائي: انت لا تستطيع اصدار حكم او تنفيذ حكم على شخص يحمل شهادة وفاة! النظام القضائي نفسه، المحترم بشكل تقليدي والذي يُعتبر مفخرة البلاد، اصبح ضحية للفساد الذي ينخر كل شيء، حين يزداد عدد القضاة المقبوض عليهم والذين تصدر بحقهم احكام.

53 الشعب، صحيفة حزب العمل الاسلامي، انخرطت مرتان في حملات طويلة ضد وزراء في مناصبهم متهمه اياهم بالفساد. لهذا السبب، عانت الجريدة من احكام قضائية ضد صحفيها بما فيهم رئيس التحرير مجدي حسين الذي قضى عامين في السجن. انظر عادل حسين: لسنا خائفين من مافيا الفساد، الشعب، 25/2/1999.

2.

54 الاشهر، قضية وزير المالية السابق الذي حكم عليه حكما قاسيا بالسجن في نهاية عام 2002. والرجل الثاني في قطاع الزراعة الذي قدم للمحاكمة. ويحاكم الان، ايضا، الرجل الثاني في مؤسسة الاعلام وقد طرد منها رجل اخر مهم، عندما برأته المحكمة؛ وقد صودرت املاك الاول والثاني موقوف في الحبس. انظر: احكام تسر الرأي العام، الاهرام، 22/1/2002.

55 مثلا: محمد الجزار: مهندسو التراخيص (تراخيص البناء للعقارات بالمدن)، مهنة سيئة السمعة، روزا اليوسف، 30/3/2002.

56 انظر مثلا: حلمي مراد: هل توجد طريقة لمواجهة الفساد الحكومي الذي يتسبب في معاناة الناس، الشعب، 2/2/1993؛ عبد الفتاح علي: الفساد وصل الوزارة يا سيدي الوزير، الدستور، 31/7/1996 (اغلقت هذه الصحيفة بعد ذلك).

57 حسين احمد امين: هل اصبحنا امة شحاذين؟، العربي، 29/7/2001.

58 مثلا، اكبر عملية لاصدار شهادات وفاة مزورة، الاهرام، 28/8/1991؛ مايسة نوح: تزوير وثائق الزواج والطلاق على مقاهي الحسين، روزا اليوسف، 5/1/1999.

8.

إذا ما اضيف الفساد الى عجز البيروقراطية المتضخمة، والتي توظف نحو 5.5 مليون موظف (إضافة الى مليون ونصف المليون في القطاع العام) من سكان مصر البالغ عددهم 70 مليون (10% من المصريين وحوالي ثلث قوة العمل في البلاد موظفين)، يستطيع المرء ان يخمن نوع العلاقة القائمة بين الدولة والمواطن دون الحديث عن القمع او التعذيب السياسي. يُسام المواطنون العذاب عندما يتعاملون مع البيروقراطية دون قرابة لذوي السلطان او وساطة او رشوة<sup>59</sup>.

• فساد طبقة رجال الاعمال سواء في القطاع العام او القطاع الخاص الاقتصادي. اشتملت حالات الفساد بأحجام مختلفة القطاع العام منذ توسعه في الستينات من خلال التعايش مع القطاع الخاص الذي اخذ يتوسع في السبعينات، وازدادت حالات الفساد تلك بوتائر متسارعة في العقد الاخير من القرن العشرين. أُفتتح العقد الاخير بأكبر الفضائح التي تورط فيها سلاح استخدام الدين في البنزنس. حدث هذا بواسطة المضاربة بودائع المواطنين التي جذبتها ارباح عالية بشكل مصطنع قدمتها الشركات الاسلامية التي عرفت باسم شركات توظيف الاموال (صناديق استثمار). تسبب انهيار العوائد في خسائر فادحة للمودعين وكفل للحكومة انهاء هذه الحقبة. انتهى عقد التسعينات بفضيحة اخرى بنفس الحجم والشدة. تضمن ذلك عديد من رجال الاعمال الكبار الذين استدانوا من البنوك التجارية الحكومية ولكنهم لم يسددوا ابدا ديونهم المستحقة.<sup>60</sup> البعض هرب بشكل جماعي من البلاد.<sup>61</sup> في كلتا الحالتين في بداية ونهاية العقد، كان القطاع الخاص هو الجاني. ولكن ذلك لا يعفي القطاع العام من اللوم. البنوك التي منحت القروض هي مؤسسات قطاع عام بشكل اساسي ومدراءها ليسوا فوق مستوى الشبهات. وقد اعترفت الحكومة بذلك جزئيا بالتغييرات التي أُدمت عليها في كلا من هيئات إدارة البنوك ولوائح عملها.

في حالة الشركات الإسلامية من المعروف ان مسؤولي الدولة الكبار استفادوا من أنشطة تلك الشركات، بعضهم من خلال هبات تحت اسم كشوف البركة. وشاعت في البلاد روايات عن التستر عليهم. في الحالة الأخيرة وهي هروب رجال الأعمال، اضطرت الدولة للتضحية ببعض المسؤولين الكبار، خصوصا في قطاع البنوك، وإقالتهم نتيجة لذلك.<sup>62</sup> في كلا الحالتين، كان الفساد يمت بصلات لكلا الطبقتين السياسية والإدارية اللتين ذكرناهما سلفا. لا يمكن لطبقة رجال الاعمال ان تفسد بعيدا عن فساد هاتين الطبقتين. انه الحلف الغير مقدس لفساد الدولة وفساد السوق. رغم ذلك،

59 مثلا انظر مجلة اكتوبر في 1991: عبد العظيم رمضان: العودة لموهبة تعذيب المواطنين، المواطن المصري ورحلة في جحيم الجهاز الحكومي (15/12/1999)، (1)، (8/12/1991). للاطلاع على تعليقات احدث انظر مثلا: عبد القادر شهيبي: اين كرامة الدولة؟، المصور، والرشوة حلال، 4 - 18/5/2001.

60 انظر مثلا: احمد عزالدين: التغيير من اجل مصلحة الاستقرار، الاسبوع، 10/6/2001.

61 انظر مثلا: عادل حمودة: الهاربين بمليارات مصر، العربي، 15/10/2000

62 قضية احد كبار رجال البنوك الذي عمل ايضا رئيس للجنة الاقتصادية بمجلس الشعب

يشدد الكتاب والمفكرون الموالون للدولة على جانب واحد من المعادلة اكثر من الاخر<sup>63</sup> ففي الوقت الذي لا يهمل فيه هؤلاء الجزء الذي تلعبه الدولة في الفساد، إلا أن جسم انتقادهم موجه الى طبقة رجال الاعمال كناقلين لعدوى بميكروب الفساد. مصر، بسبب ما بلغه الفساد المؤسسي المنظم من مستوى، لا يمكنها التحول الى اقتصاد سوق صريح وتفشل بيروقراطية الدولة في قيادة تنمية البلاد.<sup>64</sup> هذا منطق واضح تغذيه دون مواربة عناصر من طبقة رجال الأعمال الذين تعاونهم عناصر ليست اقل فسادا في بيروقراطية الدولة وفي القطاع العام وفي المؤسسة السياسية. تغنم المؤسسة السياسية من كلا الطرفين: تلوم السوق كسبب لفسادها هي نفسها... وتستمر في الإدعاء للمفارقة، بأنها هي قائدة التنمية و، طبعاً، قائدة السلطة السياسية.

- فساد طبقة المثقفين. بعض الصحفيين، على الاخص في الصحافة المطبوعة، متهمون من زملائهم انفسهم بتلقي رشاوى من رجال الاعمال والبيروقراطيين الكبار.<sup>65</sup> البعض الاخر متهم برشاوى عبر العالم العربي.<sup>66</sup> اخرون من الذين يتلقون رشاواهم من وسائل الاعلام المرئية هم توا يحاكمون بسبب تلقيهم رشاوى من اجل السماح لوجوه معينة بالظهور على شاشات التلفزيون.<sup>67</sup> اساتذة جامعات متهمون بالفساد.<sup>68</sup> قضية متفجرة تورط فيها اثنان من نواب عميد كلية الطب بجامعة القاهرة متهمان بالتزوير في نتائج الامتحانات المميكنة على الكمبيوتر حتى يسمح لابنيهما بالحصول على درجات عالية ومن ثم يتم تعيينهما في هيئة التدريس بالكلية.<sup>69</sup> يكمن في هذا القطاع اكثر المخاطر جدية في تغريب جيل الشباب عن بلادهم. يكتوي شباب مصر توا بألم البطالة (حوالي 20%) ويسبقها المستويات المتدهورة للتعليم الذي يتعلمونه. هؤلاء الشباب يجدون صعوبة في الزواج وفي العيش حياة هانئة او حتى طبيعية. هل يستطيعون تحمل معاناة تدهور اخلاقياتهم الذي ينتج بسبب الاخلاقيات المتردية لمن هم مثلهم الاعلى؟ هل سوف يتردون في هاوية التبلد،

63 مثلا: احمد عز الدين وعادل حمودة، انظر الى الهامشين السابقين وكتابات اخرى في جريدتي صوت الامة والاسبوع الاسبوعيتين.

64 في القضية التي برأت المحكمة احد كبار رجال القطاع العام انتقدت المحكمة ايضا السياسة الاقتصادية التي لا تشجع على الاستثمار (الحياة 12/6/2002).

65 فتح الموضوع بمقالة فهمي هويدي وتسبب في موجة من المقالات. انظر مقالته في العربي، 15/4/2001.

66 تلقي رشاوى من الرئيس العراقي صدام حسين هو الموضوع الذي افتتحه ممدوح الشيخ

67 قضية رئيس قطاع الاخبار في تلفزيون الدولة ارسلت للقضاء.

68 انظر مثلا: لبيب السباعي: جامعاتنا في خطر، الاهرام، 30/4/2001.

69 حول النائب العام الرجلين الى المحاكمة (الاهرام، 29/6/2001) وفيما بعد ادين احدهما وتمت تبرئة الاخر.

والعنف وفقدان اي شعور بالانتماء؟<sup>70</sup> قضية في نفس الموضوع هي تلك القضية الخاصة بأحد كبار رجال البنوك الذي عمل ايضا كرئيس للجنة الاقتصادية في مجلس الشعب.

بالحديث عن الفساد في مصر ستبدو مصر مع الصور التي استعرضناها اعلاه مظلمة. سوف يعتبر المسئولون في الدولة تلك الامثلة مبالغات إن لم يعتبروها صادرة عن غرض شرير. وسوف يقولون ان مصر ليست اكثر بلد في العالم فسادا... وهناك العديد من الاشياء الطيبة التي تستحق الثناء في مصر. نعم.. هم على حق. ولكن الجانب الاكثر سطوعا في مصر موجود رغما عن السياسات والممارسات التي تدعو لمزيد من الفساد. في مصر الحكومية، هناك العديد من المسئولين طاهري اليد وموظفي الدولة الذين يرفضون الرشاوى رغم مرتباتهم الضعيفة وظروف معيشتهم الصعبة. و، في مصر غير الحكومية، هناك العديد من الاساتذة والمهنيين ونشطاء الجمعيات غير الحكومية الذين يكرسون انفسهم لخدمة مجتمعاتهم التي تحتاج الى العون بشدة. سكان هذه المجتمعات هم غالبية السكان الذين يعملون باخلاص وكرامة. هناك العديد من الشرفاء في مصر. ولكن، مع الاخذ في الاعتبار النظام الذي يدير ويسير حياتهم الجماعية، هؤلاء الناس غير قادرين على فرض نظام شريف لتسيير الامور.

## الطائفية

المهاتما غاندي كان على صواب في اواخر الاربعينات عندما مدح المصريين على التناغم الذي صاغوه بين الغالبية المسلمة (حوالي 90%) والأقلية المسيحية (الاقباط) (حوالي 10%) حتى أن المصطلح، الاغلبية والأقلية، لم يكن من الشائع استخدامهما سابقا في البلاد. بعد اكثر من نصف قرن، ومع إطلال الطائفية برأسها بوضوح، اصبح الكاتب الصحفي الشهير محمد حسنين هيكل قادرا على كتابة مقالة في ابريل 1994 بعنوان: اقباط مصر ليسوا أقلية - ولكن جزء من نسيج الشعب المصري. كان ذلك ردا على ندوة اكااديمية تعالج قضية الاقليات بمن فيهم الاقباط في الشرق الاوسط. اثارت الندوة رد فعل النخبة الفكرية السياسية المصرية لدرجة انها انتقلت بمكان اقامتها من القاهرة الى قبرص. بغض النظر عن المصطلحات المستخدمة والحدث، القضية الملموسة للطائفية في مصر ظلت بندا في اجندة هموم الامة.

بلغ شعور الاقباط بالسمو الى قمته ابان مشاركتهم في الثورة الوطنية المناهضة للبريطانيين في عام 1919 والعقود التالية لبناء الدولة العصرية في مصر. ولكن المنحى اخذ يهبط تدريجيا مع البروز التدريجي للإخوان المسلمين، الذين نادوا بمصر دولة اسلامية وليست دولة-امة علمانية. ومع ذلك هذا الانزلاق تم كبحه حتى اوائل الخمسينات باستمرار، رغم التآرجح، من خلال الجاذبية الجماهيرية لحزب الاغلبية العلماني، حزب الوفد، وبطول بقاء الجيل الذي قاد الثورة الوطنية، ومن ضمنهم الاقباط البارزين مثل مكرم عبيد باشا. وقعت ثورة يوليو 1952 بقيادة جمال عبد الناصر تحت تأثير الاخوان المسلمين في البداية، ولكن انتهى الامر سريعا بصدام مبكر معهم. تم اضطهاد الاخوان المسلمين لنحو

70 انظر اعمالنا حول هذا الموضوع: قضية الشباب (1994) والشباب المصري بين الانتماء والمشاركة، مركز الجيل للشباب والدراسات الاجتماعية، القاهرة. انظر ايضا، يحيى الجمل: مصر - ساحرة الفرنسيين... لماذا لا يمكن ان تكون ايضا ساحرة المصريين؟، الاهرام، 4/1/2003.

عشرين عاما وتأسس نظام اشتراكي علماني. ولكن بعض من سمات النظام الجديد اثرت على الاقباط سلبيا. من الأصل لم يكن هناك قبضي واحد بين قيادة الضباط الاحرار ومجلسهم لقيادة الثورة. ثانيا، التدابير ذات التوجه الاشتراكي كالأصلاح الزراعي وتأميم الشركات الخاصة اثر على بعض العائلات القبطية من ذوي الاملاك. ثالثا، كان على النظام لتغطية قمعه للإخوان المسلمين وحتى يسمح بتمرير اشتراكيته في مجتمع اسلامي ان يحافظ على ملامح اسلامية معينة (مثلا، استثمار اكثر في التعليم الاسلامي بالأزهر، بوابة مصر للعب دور في العالم الإسلامي وافتتاح مشروعات مثل محطة اذاعة القرآن). عدد متزايد من الاقباط غيروا موطنهم وهاجروا الى العالم الجديد. وأولئك الذين مكثوا في الوطن بدأوا تغيير مشاعرهم بشكل طفيف متوجسين بما قد يأتي به المستقبل في مصر. بدأت النخبة القبطية النشيطة تنكمش عن أنشطة الحياة العامة في مصر (عضوية هامشية في البرلمان على سبيل المثال)، مع اتخاذ الكنيسة القبطية الارثوذكسية وضع المتحدث باسم الاقلية التي اصبحت امر واقع. تغيير المشاعر اصبح تغيرا في الحقائق عندما جاء السادات الى الحكم في بداية السبعينات. اطلق السادات الاسلاميين ضد خصومه اليساريين، وهو التكتيك الذي كلفه حياته بعدها بعقد من الزمان. هذا العقد كان قمة الرواية المحزنة للعلاقات بين الطوائف في المجتمع المصري. ابتداء العقد بحادثة الخانكة الطائفية في 1972 (والذي شكل بسببها لجنة تحقيق برلمانية وأصدرت تقريرا ما زال ينتظر التنفيذ في مصر حتى اليوم). ابتداء العقد التالي بقتل الرئيس السادات في اعقاب حادثة طائفية اخرى في حي الزاوية الحمراء بالقاهرة والذي استخدم كذريعة لسجن خصوم السادات من القيادات المدنية، بكل تنوعاتهم السياسية (مذبحة سبتمبر). التطورات المنحازة للإسلاميين انهدت حياة الرئيس وواجه النظام الأزمة، أزمة من النوع السياسي ولكن بطعم طائفي.

تعامل مبارك مع الأزمة بعد ان اعتلى السلطة منذ 1981، بالتصالح مع المعارضة. ولكن نحو منتصف العقد الاول من حكمه عادت الى السطح مرة اخرى التوترات السياسية والطائفية مع ظهور التشدد الاسلامي. وقعت حوادث من الاعتداء على الأقباط خصوصا في صعيد مصر.<sup>71</sup> ربما يكون الصدام مع الاسلاميين نحو منتصف التسعينات قد أممَّن السيطرة على السلطة السياسية. ومع ذلك، لم يفعل هذا الصدام إلا القليل نحو تغيير المشاعر الطائفية ومنظوراتها التي تراكمت طوال هذه العقود.<sup>72</sup> اذا ما كان هناك جديدا في الاحداث الطائفية، يتجاوز التوترات المعتادة في الحياة اليومية، فهو انها اصبحت اقل عددا ولكنها اسوأ في طبيعتها وأكثر اثارا للمشاعر. الحوادث الطائفية تلك تضمنت حرق متكرر للكنائس<sup>73</sup>، وهذه المرة امتدت النيران للكنائس العريقة ذات المكانة مثل دير المحرق في اسيوط

71 الحادثة التي مست المشاعر في صنبو (محافظة اسيوط في صعيد مصر) حيث قتل 13 مسيحيا في مايو 1992 كانت علامة على القتل الطائفي في التسعينات.

72 عن المشكلة القبطية عموما انظر اعمال ميلاد حنا ووليم سليمان ويعقوب انطونيوس وادوارد الذهبي واخرين. انظر ايضا مقالة مجدي خليل: كل العالم يعترف بمشاكل الاقباط ما عدا الحكومة المصرية، وطني، 12/8/2001.

73 اخر الحوادث هي كنيسة مغاغة (محافظة المنيا) في فبراير 2002. انظر مثلا التغطية الواسعة لهذه الحادثة في الاهالي، 13/2/2002.



عام 1994. وكان الأسوأ في كنيسة ابو قرقاص عام 1997، لأول مرة يُحرق الناس اثناء تعبدهم. وبلغنا اسوأ نقطة في طالع النحس هذا مع ثالث حرق لكنيسة في نفس القرية "الكشخ"، عام 1998، 1999، 2000.<sup>74</sup> وأخيراً، "القشة التي قصمت ظهر البعير". تظاهر في اهتياج آلاف من الاقباط الذين كانوا حتى وقتنا الحاضر متهيييون، في فناء البطريركية. كانوا يحتجون اسمياً ضد تقرير فح لأحد الصحف، به صور عري فاضح، عن قضية لقس خارج على الكنيسة.<sup>75</sup> ولكن الاقباط كانوا ينشرون بشكل جوهري كل المظالم التي تحيق بهم على العلن وللكافة. في اختيار الاقباط لفناء البطريركية مقر قيادتهم الدينية ليزيعوا منها استهجانهم وسخطهم على ما يجري لهم (بدلاً من البرلمان او نقابة الصحافيين او حتى الشارع) هم بلا روية يقدمون البرهان على انهم اصبحوا طائفيين من منطلق رد الفعل.

الحقبة التي شهدت مثل هذه الحوادث، والتي رأت أسوأ تمثيل برلماني للأقباط<sup>76</sup>، كان عليها ان تشهد حدوث ابعاد جديدة تؤثر على قضية الطائفية برمتها في مصر. هذا هو البعد الخارجي. كان على مصر ان تواجه تدخل ثلاثي الرؤوس من وراء البحار في المسألة الطائفية المصرية. أولاً، جموع منظمات حقوق الانسان الدولية التي تتناول بالأخص قضايا الاقليات او قضايا حقوق الانسان في عمومها. ثانياً، العدد المتزايد من منظمات الاقباط في المهجر.<sup>77</sup> ثالثاً، الادارة الامريكية خصوصاً بعد تمريرها قانون جديد من الكونجرس وتشكيل لجنة لمراقبة قضية الحريات الدينية في انحاء العالم. اصبح دعم الحرية الدينية، فعلاً، جزءاً مكوناً من المعونة الامريكية للبلدان الاخرى.<sup>78</sup> تمثل المصادر الثلاث تطوراً يؤخذ في الاعتبار جدياً من قبل اللاعبين الداخليين: الحكومة، الكنيسة القبطية، والنخبة القبطية وجموعها. فهم بكل مفردات خطاب الوحدة الوطنية العالي ووطنته لا يمكنهم تجاهل التأثيرات الخارجية على القضية التي فشلوا من جانبهم في تسويتها.

---

74 قتل اكثر من 20 قبطياً في الحريق الاخير من سلسلة العنف الطائفي في هذه القرية. فشلت المحكمة في اثبات التهمة على اشخاص القاتلين وسط الغوغاء الذين اتهموا بإحداث الحريق. انظر تصريحات 100 من الشخصيات العامة تعليقا على تلك الحادثة والمشكلة الطائفية بأكملها في مصر في: صحيفة وطني، 20/2/2000.

75 تحقيق جريدة النبا، 13/6/2001. اغلقت الصحيفة ومنع الصحفيون الرئيسيون بها من مزاولة المهنة. (عادتهم المحكمة للعمل فيما بعد). انظر مثلاً للتغطيات الصحفية وردود الافعال في: الاهرام، 19/6/2001 محفوظ الانتصاري: النبا والصيدون؛ الاهرام، 21/6/2001، محمد صلاح، مظاهرات الاقباط، الحياة 1/7/2001، الاهرام 2/7/2001 عمرو الشويكي: ازمة صحافة ام ازمة مجتمع؟؛ الاهرام، 9/7/2001، طروق البشوي: عن النبا والتحقيقات، الاسبوع، 9/7/2001، ضياء رشوان: صيف الغضب القبطي، الحياة 20/7/2001.

76 عن ذلك انظر تقارير/كتب مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية بالاهرام عن الانتخابات بين 1984 و عام 2000.

77 لمطالعة عمل متكامل عن ذلك انظر: مجدي خليل: اقباط المهجر، دار الخيال، القاهرة، 1999.

78 لنقد متكامل للسياسة الامريكية في هذه القضية انظر: سمير مرقص، الحماية والعقاب: الغرب والمسألة الدينية في الشرق الاوسط، ميريت، القاهرة، 2000. انظر ايضاً، نعمات احمد فؤاد.. ابن امريكا من مصر في المسيحية، الاهرام، 22/10/1997؛ فاطمة النمر: ليس ردا على تقارير السفارة الامريكية. خريطة النفوذ القبطي في مصر، العربي، 22/12/1997؛ مصباح القط: حوار مع ميلاد حنا، العربي، 19/8/1998.

المسئولون الحكوميون المصريون مغرمون بالتورط في عادة تكرار الحوار القديم: نحن لا نستسلم للضغوط الخارجية. في الحقيقة، هم يستسلمون. تقريبا كل التغييرات التي مست قضية الطائفية، سواء بالتجميل او بالإصلاح الملموس، كانت استجابة للضغوط الخارجية. اشتملت تلك الضغوط على تقارير منشورة على نطاق واسع اصدرتها منظمات حقوق الإنسان وزيارة لتقصي الحقائق مكونة من مبعوثين للأمم المتحدة، ورجال الكونجرس الامريكى<sup>79</sup> ونواب مجلس العموم البريطاني<sup>80</sup>، ومظاهرات ولوبي الاقباط في المهجر الخ. في السنوات الاخيرة كانت كثير من الاستجابات نفسها للتجميل فقط في الشكل، مثلا، حضور مسئولى الدولة بشكل جماعي صلوات الاقباط في الكريسماس، وإذاعة هذه الصلوات كاملة على شاشات التلفزيون. تتلقى شخصيات من الاقباط الدعوة للظهور في برامج التلفزيون الخ. التدابير الملموسة اكثر كانت تعيين مزيد من الاقباط في الهيئات القيادية للحزب الوطني الديموقراطي الحاكم واختيار مرشحين اقباط اكثر في قوائمه الانتخابية. الطلب عالي على الشخصيات القبطية في هذه الساحة. يتم هذا في تباين واضح مع قوائم الحزب الوطني الديموقراطي الخالية من الاقباط في انتخابات 1995. وقتها برر السكرتير العام المساعد للحزب الوطني ذلك بقوله: نحن نضع في القوائم مرشحين يستطيعون جمع الاصوات والنجاح. وهكذا، من يخسرون اصوات الناخبين في الامس القريب يبدون الان انهم بوابة مصر لكسب احترام المجتمع الدولي. انها إشارة ربما رمزية، ولكنها ذات مغزى، عندما اعلن الرئيس مبارك ان يوم الكريسماس، السابع من يناير بالنسبة للأقباط الأرثوذكس عيدا رسميا في البلاد كلها. في السابع من يناير 2003، ولأول مرة في حياتهم، يبادل المسلمون المصريون اخوانهم المواطنين المسيحيين الاهتمام بيوم مقدس. هل سوف تُعتبر تلك الاشارة افتتاح لحقبة جديدة من الانسجام الطائفي؟ او ان ما تراكم من التطرف الديني في الاعوام السابقة قد تخندق بشكل اكبر ويحتاج الى اعادة تعليم الامة مرة اخرى عبر تدابير وبرامج ملموسة اكثر؟

كلمة اخيرة عن اثر 11 سبتمبر 2001، على المجتمع المصري. بينما قد يكون للعقبات والزلازل البشرية اثرا مباشرا على الازدحام الاقتصادي والسياسية، فإن هذه الزلازل البشرية لا تؤثر على المجتمعات لنفس المدى. التغييرات الاجتماعية هي عملية مستمرة بطبيعتها، متدرجة وتحدث عبر تراكم. انها تتضمن نظاما من القيم وأنماطا من السلوك والتفاعلات المتبادلة الجماعية. وذلك يأخذ زمنا حتى يحدث التغيير. في حالة مصر، هذا القانون ينطبق عليها كما ينطبق على غيرها في اي مكان اخر. ولكن كقضية ذات علاقة ويمكن الامساك بها بشكل اكثر سهولة هو قياس رد فعل النخبة السياسية حين تتناول ما يطرأ من تطورات سريعة. ليس فقط قياس استجابتها للالتزامات التعاون الدولي ضد ارهاب متعدي القوميات ولكن ايضا قياس الطريقة التي ترتب بها بيتها الداخلي. هذا ينطبق على ادارتها الاقتصادية اضافة الى تعاملها مع المشاكل الاجتماعية وما يمليه عليها واجب الاحتفاظ بنسيج اجتماعي قوي وسط العواصف.

79 عادة قاطعهم السياسيون والمتفقون؛ ما عدا نشطاء حقوق الانسان مثل هشام قاسم ومن جانب الحكومة طبعا الموالون الذين منحتهم الاذن بالمقابلة.

80 خصوصا ديفيد التون الذي اعد تقريرا عن قضية الاقباط

يبدو ان النخبة الحاكمة المصرية، التي تتميز بالجمود وبطء الاستجابة للتغيير، تتحسس خطورة وضعها بعد الحادي عشر من سبتمبر. وبشكل متناقض ظاهريا، تجد النخبة الحاكمة المصرية عزاء في حقيقة ان خدماتها ما زالت مطلوبة في الحملة ضد الارهاب الدولي. هكذا تباعد الاحاح بالحاجة الى تغيير متسرع، رغم الاحساس الاول بان هناك ضغوط من اجل التغيير. هناك فقط مؤشرات جنينية جدا بان هذا الاحساس قد تم ترجمته الى افعال.

يبدو ان تلك الظواهر الاجتماعية السلبية (العنف، والفساد، والطائفية) تتغير ببطء، تغييرا تحفزه وتزيد من معدلاته بشكل طفيف احداث الحادي عشر من سبتمبر. النظام المصري، بينما ما يزال فاشلا في مخاطبة الاشكال المختلفة من العنف الاجتماعي، يستخدم التهديدات الارهابية لمصلحته ولمصلحة التعاون الدولي. فيما يتعلق بالفساد، الحملة التي تواجه الفساد قد اتسعت لحد ما، رغم ان كثير من التابوهات المحرمة ما زالت لا تمس. يبدو الان ان باب النائب العام قد اصبح مواربا بشكل اكثر لإرسال قضايا فساد الى المحكمة. اما الطائفية، وتأثير العوامل الخارجية على تصرفات الحكومة فيكفيهما الان الاشارة الى البدعة المحدثه التي ذكرناها انفا بان اليوم المقدس عند المسيحيين قد اصبح يوم اجازة عند المسلمين في مصر. كل تلك التدابير تفوح منها اثار الحادي عشر من سبتمبر. وهي تدابير، يجب الاعتراف بذلك، أنها سياسية من حيث الجوهر. ولكنها سوف تترك بصمات طويلة الامد على المجتمع المصري.

## النظام السياسي

عندما ننظر الى النظام السياسي في مصر كدولة-امة تدار بنظام دولة معين تحكمه نخبة خاصة فإننا نواجه بأكثر التناقضات الصادمة: نظام متصلب بشدة شهد تغييرات قليلة جدا طوال عقدين من الزمان يسير بخطوات رتيبة في منطقة شديدة التقلب (وهو نفسه جزء من هذا الاضطراب)، بينما ما زال محافظا على حدود دنيا من السلام ويمتلك سياسة خارجية نشيطة، تؤمن له الاصدقاء في كل انحاء الكوكب. كثير من الملاحظين سوف يرون هنا مفارقة بين الاداء الفقير على الجبهة الداخلية والأداء الناجح بشكل مقارن على الجبهات الخارجية. سوف يسوق خصوم النظام حجج ودلائل مختلفة: الاستقرار الداخلي قد امن لهم نجاحات الخارج. بغض النظر عن تلك المجادلات، هناك فجوة تتكشف عند الدراسة الفكرية للسياسة المصرية.

عشية التسعينات، التقت جماعة من المثقفين المصريين في مركز الدراسات السياسية بجامعة القاهرة (الذي اسسه وأداره الاستاذ الدكتور علي الدين هلال، الذي اصبح فيما بعد عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ثم وزيرا للشباب) لمناقشة النظام السياسي في مصر - الاستمرارية والتغيير<sup>81</sup>. دارت مناقشات ساخنة واختلافات بين اولئك المثقفين المصريين. في العام التالي، تجمعوا لمناقشة السياسة الخارجية المصرية<sup>82</sup>. دارت بينهم مناقشات رتيبة باهتة وظهر قليل من الاختلافات. السفير عمرو موسى (وزير الخارجية السابق ثم السكرتير العام للجامعة العربية)، عند تقديمه تعليق على اللقاء في ورقة بعنوان الجهاز الدبلوماسي المصري - محنك ام عتيق؟<sup>83</sup>، قال للمؤلف: رغم انك اكثر انتقادا في عروضك الشفاهية مع ذلك إن ما نختلف حوله قليل. هذا ايجاز واف لشبه الاجماع على سياسة البلاد الخارجية بين النخبة المثقفة. بالنسبة للسياسة الخارجية، هناك مجال واسع للنزاع. في المنتصف يقع مجال السياسة شبه الداخلية وهي السياسة الإقليمية حيث الاتفاق اقل بشكل ملحوظ، خصوصا فيما يتعلق بالسلام المصري الاسرائيلي وطبيعته. يشتد الاختلاف حين ينقسم المثقفون والسياسيون المصريون حول مسألة حرب الخليج 1990/1991. في الإجمال من الاجماع الى الاختلاف الى الصراع يمتد الخيط المستمر للسياسة في مصر في تبادلاتها الدولية والإقليمية والداخلية.

## السياسة الدولية

خارج الشرق الاوسط ليس لمصر افتراضيا اي اعداء في العالم على اتساعه. حتى في منطقتها المضطربة، حيث تمثل اسرائيل عدوا تاريخيا واستراتيجيا، تحتفظ مصر بمعاهدة سلام مع اسرائيل. بين البلدين سلاما باردا، ولكنه متين،

81 انظر مطبوعة الوقائع في: علي الدين هلال: النظام السياسي المصري، مركز الدراسات السياسية، جامعة القاهرة، 1989.

82 احمد يوسف: سياسة مصر الخارجية، مركز الدراسات السياسية، جامعة القاهرة، 1989.

83 احمد عبد الله: المصدر السابق.

يحافظ عليه كلا الطرفين منذ ربع قرن. يخص الجزء غير المكتمل من مهمة السلام الفلسطينيين وليس مصر نفسها، مع كل مشاعر المحبة والتعاطف التي يحملها المصريون نحو الفلسطينيين.

نظام مبارك، رغم كل خيباته الوطنية والإقليمية، يستحق الجدارة بسبب نجاحاته في المدى الذي بلغته السياسة الخارجية المصرية في المجال العالمي الاوسع. بينما ثبت السادات مصر في المعسكر الامريكى بعد حرب اكتوبر 1973، مما خلق توترا مع المعسكر السوفيتي، عمل مبارك على تلطيف هذه التوترات بينما استمر في تقوية علاقته مع الولايات المتحدة. منتقدوه في الفترة الاولى من حكمه ارادوا مصر اقل انحيازا لأمريكا وأكثر حيادية. ولكن في منتصف عهد مبارك اختفت ثنائية القطبية من العالم مما جعل تصحيح حيادية مصر امرا مستحيلا؛ سقط الاتحاد السوفيتي جثة هامة. وأصبح الاستمرار في انتقاد مصر لكونها تابعا لأمريكا ممارسة شديدة الصعوبة. كان لمصر مبارك عديد من الاختلافات مع الولايات المتحدة اثبتت بها مصر انها ليست احدى جمهوريات الموز. اكثر من ذلك، اقصى مد شعبي مناهض لأمريكا في مصر حدث في ظل حكم مبارك<sup>84</sup>.

يحرص نظام مبارك على تقوية علاقاته بأوروبا. اوثق علاقات تم بناءها كانت مع فرنسا في ظل حكم الرئيس ميتران والرئيس شيراك. دعمت الابعاد الثقافية قوة الارادة السياسية؛ فمصر تحظى بولع فرنسي خاص. النظام المصري يرى نفسه قريبا للاستقلال الذاتي النسبي الفرنسي امام الولايات المتحدة رأسا برأس. يسعى كلا البلدان لان يكونا شركاء غير تابعين للولايات المتحدة. السياسات المصرية الاخرى نحو اوربا تضمنت الشراكة في عملية برشلونة التي شمل اعلانها بداية من نوفمبر 1995 بلادا من المنطقة الاورو-متوسطية. بعد جدال حامي الوطيس داخل الدوائر ذات الصلة في مصر ومفاوضات ساخنة مع الاتحاد الاوروبي، صدفت مصر اخيرا على اتفاقية شراكتها مع الاتحاد الاوروبي. والآخر ما يزال الشريك التجاري الاولي لمصر. ورغم ان المعونة الاوروبية لمصر اقل من نظيرتها الامريكية، تستقبل الاسواق الاوروبية صادرات مصرية اكثر مما تستقبله الاسواق الامريكية. حتى على المستوى الفكري هناك علامات اكثر على الحوار العربي الاوروبي مما على الحوار العربي الامريكى<sup>85</sup>.

هذا ولا نتجاهل التوترات مع اوربا التي شملت مصر مع بلدان عربية واسلامية اخرى. ولب القضية في هذا الموضوع هو الحركات النازية الجديدة النامية واتجاهات كراهية الاخر عند اليمين الاوروبي المتطرف. تطورت التوترات هنا وهناك بين مصر واوربا حول قضايا حقوق الانسان. اشهرها، سجن عالم الاجتماع الشهير سعد الدين ابراهيم في يونيو 2002 بسبب الادعاء بتلقيه تمويلا من الاتحاد الاوروبي دون الحصول على اذن من السلطات

84 عن هذا الموضوع انظر الدراسة المستقلة: احمد عبدالله: مناهضة الامريكان في مصر، معهد الاستشراق الالمانى، هامبورج، 2003.

85 للاطلاع على صوت نادر يدعو الى الحوار مع اللوبي اليهودي في امريكا انظر: اسامة الغزولي: حجة للحوار مع الوحش، الاهرام، 23/11/2001.

المصرية<sup>86</sup>. ايضا، سجن جماعة من المثليين في مصر<sup>87</sup>. ولكن في الاجمال، فيما يخص السياسة الاوروبية في الحاضر تجاوزت مصر تجاربها السيئة مع اوربا في الماضي: الاحتلال البريطاني لمدة 72 عام (1882 – 1954) والغزو النابليوني الفرنسي (1798 – 1801) بجانب المواجهات حول الحرب الجزائرية (1954 – 1962). بالنسبة لفرنسا وبريطانيا معا، تغيرت صورة مصر منذ غزوهما الثلاثي مع اسرائيل بشكل كبير مما ادى لنشوب حرب السويس (1956) مع ان مصر تبقي على تحفظاتها نحو السياسات الاوروبية في صراع الشرق الاوسط (عند مرحلة معينة كان هناك قطع للعلاقات الدبلوماسية مع دول اوروبية فرادى مثل هولندا)، فان مصر الان ترى السياسة الاوروبية نحو جوهر الصراع (الفلسطيني الاسرائيلي) اكثر توازنا من السياسة الامريكية. اصبح تأثير مصر على بلدان العالم الثالث الاخرى سياسة تقليدية منذ تأييد عبد الناصر لكفاحات التحرر الوطني في البلاد الافرو-اسيوية<sup>88</sup>. بعد استقلال الجم الغفير من تلك البلدان استمرت مصر بروابطها اللصيقة معهم في اطار حركة عدم الانحياز، والتي تضمنت ايضا بلدان امريكا اللاتينية. ايضا استمرت مصر تلعب دورا نشيطا في منتديات تلك الدول، مثل مجموعة ال 77، وجماعة ال 15 الخ. بطرس بطرس غالي، وزيرا للشئون الخارجية في عهد السادات ومبارك، (وفيما بعد سكرتيرا عاما للامم المتحدة) حاول انعاش دبلوماسية مصرية نشطة في افريقيا ومدتها بشكل اوسع الى امريكا اللاتينية، خصوصا المكسيك<sup>89</sup>. احتفظت مصر بسفارات في معظم بلدان العالم، ومعهد وزارة الخارجية للدراسات الدبلوماسية يدرّب الدبلوماسيين المصريين والعرب والافارقة، ويمثّل دبلوماسيوها مجتمعا عالي المهنية. تقليديا وبشكل يمكن فهمه، حرصت الدبلوماسية المصرية على صياغة روابط جيدة مع اثنين من قوى العالم الثالث: الصين والهند. وبالفعل، بعض الدبلوماسيين الذين خدموا هناك كانوا يحتلون مواقع مهمة في المؤسسة السياسية الدبلوماسية<sup>90</sup>. من ناصر الى السادات الى مبارك تمسكت مصر بهذا التقليد. رغم خسارة بعض المساحات في الهند، ظلت العلاقات معها ودية. مع الصين استمرت العلاقات قوية. قام الرئيس مبارك بدور في ذلك مذ كان نائبا للرئيس السادات. فقد زار الصين اكثر من مرة ودعم العلاقات الاقتصادية والسياسية بها. بالاضافة الى ذلك، اجنحة اوسع

---

86 هناك ملف ضخّم حول هذه القضية بلغات عديدة حيث انها وجدت تغطية واسعة في الصحافة الاوروبية والامريكية. هذه القضية حتى قد تسببت في توترات في العلاقات الرسمية المصرية الامريكية لان سعد الدين ابراهيم يحتفظ بكلا الجنسيين المصرية والامريكية.

87 انظر مثلا: اوربا تمنح اللجوء السياسي للمثليين المصريين، الاحرار، 7/9/2001؛ ستة الاف توقيع فرنسي يحتج على ادانة المثليين المصريين، الحياة، 9/2/2002. من الجدير بالذكر ان الرئيس مبارك لم يصدق على الحكم الصادر بحقهم وعقوبة السجن المشددة واعاد الحكم للقضاء من اجل اعادة المحاكمة.

88 في القاهرة، ما زالت تعمل، رغم كثير من الضجيج، منظمة تأسست في الخمسينات باسم منظمة تضامن الشعوب الافرو اسيوية. تتلقى هذه المنظمة الدعم من وزارة الخارجية المصرية بشكل اساسي.

89 انظر مثلا بالانجليزية مؤلفنا الذي كتبناه مع مقدمة بقلم بطرس بطرس غالي: حوار افريقيا-امريكا اللاتينية، وزارة الخارجية المصرية، 1986.

90 مثل عمرو موسى نفسه (السفير السابق للهند في الثمانينات) ومصطفى الفقي (سكرتير الرئيس للمعلومات وفيما بعد رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشعب الذي خدم في كلا البلدين. ايضا نعمان جلال الذي خدم في الصين: انظر مقالته: حوار مع صديقي رجل الاعمال الصيني، الاهرام، 6/1/2002.

من المؤسسة السياسية، مثل دارنشر الاهرام، دعمت استمرار التعامل النشط مع الصين. زار رئيس تحرير الاهرام الصين مع فريق من محرريه<sup>91</sup>. وقد تابعت الصحف الصينية اليومية الزيارة ولقائها بشكل واسع. كثير من المثقفين ايضا، يرحبون بعلاقات مصرية قوية مع الصين والهند ويلحون عليها.<sup>92</sup>

كلا من مصر الحكومية والغير حكومية انغمست قبل 11 سبتمبر بشكل عميق في الاضطراب الذي طغى على الشرق الاوسط، وبشكل محدد المواجهات الدموية في اسرائيل وفلسطين (اسراطين نقلا عن القذافي الزعيم الليبي). لقاءات في الاحزاب السياسية ومقرات النقابات المهنية، وتشكيل لجان التضامن ومظاهرات الشوارع شكلت ردود الافعال الغير حكومية على الاحداث في فلسطين واسرائيل. بعد وقت طويل من النوم السياسي، نشطاء الاجيال الماضية (خصوصا اليساريين من جيل السبعينات والاسلاميين من جيل الثمانينات) انضموا يدا بيد الى جيل الشباب الاصغر الذي كان حتى ذلك الوقت متبلدا طلابا وتلاميذا. اكتشفوا بالاضافة الى الضيم والظلم الذي يعاني منه الشعب الفلسطيني ومشاعر التعاطف الفريدة معه، اكتشفوا اخيرا لانفسهم دورا سياسيا ليلعبوه يتجاوزون به الخنق السابق للمشاركة السياسية بواسطة النظام. لم يقف النظام نفسه ضد تعبير المشاعر العامة الجارفة عن نفسها طالما تحت السيطرة. وقد خدم ذلك ايضا النظام باظهاره نظاما وطنيا وديموقراطيا. بل انه حتى حاول ان يختطف النضالات الغير حكومية (مثل ارسال مساعدات الاغاثة لمساعدة الفلسطينيين) ونسبها لنفسه باحسان من شخصية تمثل رأس الدولة بشكل غير رسمي (اي السيدة الاولى). هذا النشاط قدم خدمة اخرى للايديولوجيين الاسلاميين والقوميين، الذين لم يعتقدوا ابدأ ان هناك مكانا لسلام عربي اسرائيلي؛ فالصراع في نظرهم صراع "وجود وليس حدود".

التبعات الثقيلة للصراع الاقليمي على سياسات مصر الدولية، للمدى الذي تتعلق به التحركات النضالية الغير حكومية، ينعكس في نزعة مناهضة لامريكا. امريكا واسرائيل يعتبرون شيئا واحدا. حرق العلمين، نجمة داوود والنجوم والخطوط ونداءات ودعوات المقاطعة لمنتجات البلدين اصبحت هي نسق اليوم. وتجد نزعة مناهضة امريكا تعبيراتها في سياق الحركة المناهضة للعولمة<sup>93</sup> ومشاركة المنظمات الغير حكومية المصرية في مؤتمر مناهضة العنصرية في ديربان 2001<sup>94</sup>، حيث عزلت امريكا واسرائيل بشكل مطلق قبل ايام قليلة فقط من احداث 11 سبتمبر.

91 سلسلة مقالات نشرت في الاهرام في يناير 2002. انظر المقالة الختامية: عبد المنعم سعيد، العودة من بكين الى القاهرة، الاهرام، 4/2/2002.

92 اولهم انور عبد الملك الذي كان لعقود طويلة يضغط في اتجاه سياسة نحو الشرق بالنسبة لمصر تتجه نحو الهند والصين تمتد بها الى اليابان؛ الدائرة الشرقية او طريق الحرير، كما يسميه. ايضا الصحفيون مثل محمد عودة الذي ينادي بالتوجه نحو الهند. انظر ايضا: ميلاد حنا: مصر والهند والصين معا... من عمق التاريخ الى تكنولوجيا المعلومات، الاهرام، 13/2/2001.

93 برعم لحركة مناهضة للعولمة ينمو تدريجيا في مصر. مثلا تشكيل المجموعة المصرية لمناهضة العولمة (اجيج) في منتصف يونيو 2002.

94 انظر مثلا: حلمي شعراوي: مؤتمر مناهضة العنصرية، الاهرام، 1/7/2001. في اعلان القاهرة، لعدد من المصريين، والعرب والمنظمات الغير حكومية الدولية قبل انعقاد مؤتمر ديربان انظر: احمد الصاوي: الاعلان يفقد المصداقية، الاهرام، 18/8/2001.

مجرد ساعات قليلة بعد مأساة نيويورك، وواشنطن دي سي، وبنسلفانيا تجمع بضعة الاف من النشطاء المصريين على مرمى حجر من السفارة الامريكية في القاهرة. ارادوا التجمع على ابواب السفارة فعلا ولكن البوليس عزلهم عنها لمسافة بينما سمح لوفد منهم ان يصل الى ابواب السفارة ويقدم بياناً. لم يأتوا للسفارة بتعازيهم لكن بشجبهم وادانتهم للدعم الامريكي لاسرائيل<sup>95</sup>. ابعدهم من هذه المفارقة اللحظية، استمر النشطاء الغير حكوميين المصريين في احراق النجوم والخطوط كما لو ان شيئاً سيئاً لم يحدث لامريكا ولكن الكثير من السيئ تتركبه امريكا في فلسطين. رد الفعل الامريكي على احداث 11 سبتمبر شجع افغانستان والعراق على ان يصبحوا اخوة يوحدتهم انهم يتعرضون للاذى الامريكي. وهكذا اضيف مسلسل الى باقي الحلقات واستفحلت النزعة المناهضة للامريكان<sup>96</sup>. استمر النشاط المناهض لاسرائيل وشاعت منه رائحة ما لمعاداة اليهود مما شجع اللوبي اليهودي في فرنسا على تقديم رئيس تحرير الاهرام الى المحاكمة غيابيا في محكمة بباريس. بعدها، السفارة الامريكية في القاهرة، هي ايضا، تقدمت باحتجاج على نفس القضية ضد دراما تليفزيونية في التلفزيون المصري.

العزاء في الضحايا لامريكا قدمته مصر الحكومية. ولكن الحكومات لم تخلق فقط لتقديم التعازي. انها تحتل مكانها لتتحري السياسات. اصناف من القضايا المتعلقة باحداث 11 من سبتمبر فرضت على الحكومة المصرية لتتعامل معها. اولاً، كان عليهم تبرئة اسم مصر تحديداً منها، حيث ان قادة الصف الاول للارهاب الدولي مصريين: ايمن الظواهري<sup>97</sup>، الرجل الثاني بعد بن لادن (والرجل الاول فكرياً)، ومحمد عطا، رئيس فريق التدمير في 11 سبتمبر. احتلت المنظمات المصرية، الجهاد والجماعة الاسلامية بالاسم، قمة القائمة الامريكية للمنظمات المحظورة بسبب ارهابيتها المطلوبين<sup>98</sup>. شرعت اتهامات بتواطؤ النظام في خلق ارهابيين ضد مصر والعربية السعودية من قبل وسائل الاعلام الامريكية؛ وبالخصوص توماس فريدمان الذي لا يحمل ودا لهما. ثانياً، كان على الحكومة ان تتعامل مع تفاصيل مثل مصير 580 مصري قيل انهم مع بن لادن في افغانستان<sup>99</sup>. كل ذلك بالاضافة الى الصعوبة الفائقة في اثبات موقفها المناهض للارهاب بينما الاصوات المناصرة لبن لادن وطريقته والمناهضة للامريكيين تجلجل على

95 الاهرام، 11/9/2001.

96 عن المظاهرات في شهر واحد فقط، اكتوبر 2001، انظر مثلاً: مظاهرة جامعي الاسكندرية والمنوفية (الوفد، 1/10/2001)، مظاهرة جامعة القاهرة (الوفد، 4/10/2001)، مظاهرات في جامعات مختلفة (الوفد 10/10/2001، وايضا الحياة)، ومظاهرات جامع الازهر (الوفد، 13/10/2001، والحياة ايضا)، للاطلاع على تغطية متكاملة لتلك المظاهرات: لا للمذبحة... انقذوا افغانستان، الاسبوع، 15/10/2001.

97 اقترح البعض نزع الجنسية المصرية عنه (الاهالي، 24/10/2001).

98 الشرق الاوسط، 3/11/2001. ايضاً: في القائمة الامريكية: معظم الارهابيين من مصر، افاق عربية، 18/10/2001.

99 علاء عنتر: مصير 580 مصري اعضاء في القاعدة، صوت الامة: 5/12/2001. انظر ايضاً الاعمدة المتنوعة لسلامة احمد سلامة الذي يضغط فيها على الحكومة المصرية ان تعتني بمواطنيها في المعتقلات الامريكية، الاهرام، 19/12/2001.



ارضها<sup>100</sup>. وبالفعل، تكلمت "مصر الرسمية" بصوت عالي وتحركت سريعا الى صف الحملة الامريكية والدولية المناهضة للارهاب. ولكنها كانت تفضل لو ان هناك تحديد واضح من المجتمع الدولي باكملة لمفهوم الارهاب بدلا من التعريف الامريكي الاحادي. يتضمن التعريف الامريكي هؤلاء الذين تعتبرهم مصر محاربين من اجل الحرية وليسوا بارهابيين. وكانت مصر تفضل ايضا تجنب الحرب في افغانستان وفي نفس الوقت تقديم الجناة في احداث 11 سبتمبر الى المحاكمة<sup>101</sup>. وبشكل اكثر اصرارا، لم ترغب مصر في حرب العراق وفي نفس الوقت ضغطت على النظام العراقي حتى يحترم قرارات الامم المتحدة.

في الحرب على الارهاب كانت مصر متعاونة ومفيدة بشكل له قيمته على جبهة الاستخبارات. لقد قدمت اسما ومعلومات حول 150 اسما متهما الى الولايات المتحدة والبلاد الاخرى<sup>102</sup>. لتلخيص التدابير الامنية والمنظور السياسي لمصر الرسمية فيما بعد 11 سبتمبر يستطيع المرء ان ينقل حرفيا تصريحات وزير الداخلية المصري للمجلة الاسبوعية شبه الرسمية المصور (حوار مع مكرم محمد احمد، 28/12/2001):

مصر لا تصدر الارهاب، فقد حذرت البلاد الاخرى من استضافة الارهابيين المصريين. زودت مصر الولايات المتحدة بمعلومات وفيرة ساعدتها في حريها على الارهاب. معظم القادة الارهابيين في الداخل يقرون الان بتفكيرهم الخطأ ونحن ندخل في حوار فكري مع الاقلية المتطرفة المحبوسة (فقط 4 من الاف اطلق سراحهم عادوا الى جماعاتهم مرة اخرى). اوقفت التعذيب البدني في السجن لان ذلك يساعد على خلق جيل جديد من المتطرفين اكثر تطرفا. اوقفت القبض على عائلات الارهابيين الهاربين لتقادي خلق ارهابيين جدد. قانون الطوارئ المصري اكثر رحمة من السلطات الجديدة الممنوحة للمؤسسات الامنية الامريكية. جماعات حقوق الانسان الان تسقط صمتا بعد ان قررت واشنطن نفسها اللجوء الى المحاكم العسكرية. انا لا استطيع ضمان ان السودان تخلو من الارهابيين ولكني اثق في توجهات الرئيس البشير الان. كانت اليمن في الغالب تقدم اعدارا بان الارهابيين المصريين يختبئون بين القبائل، ولكنهم الان نشطون في مكافحة تلك الجماعات.

قتل اربعة من قيادات القاعدة المصريين حتى الان.

100 لخصت تلك الاشكالية التي وقعت فيها الحكومة المصرية في مقالة عبد المنعم سعيد (رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية بالاهرام): مصر وازمة 11 سبتمبر 2001، الاهرام، 19/11/2001. من الجدير بالملاحظة، انخرط السفير الامريكي في القاهرة في جدال صيفي ساخن في 2002 مع المثقفين المصريين الذين استمروا في تبرئة بن لادن من تهمة ارتكاب احداث سبتمبر.

101 من اجل الاطلاع على تدعيم فكري لوجهة النظر الرسمية انظر: محمد السيد سعيد: المصريون لا يحبون الحرب، الاهرام، 22/10/2001؛ وعلى نفس المنوال، نحو مبادرة لوقف حرب الافغان، الاهرام، 5/11/2001. انظر ايضا تحذيرات فهمي هويدي ضد تفكيك افغانستان كنظام سياسي: شبح الفوضى تهدد افغانستان، الاهرام، 20/11/2001. انظر ايضا: التقرير العربي الاستراتيجي 2001، الاهرام، 2002، ص ص 403 - 414.

102 الاهرام، 22/12/2001.

شريط بن لادن الاخير كافي لادانته وانا اعتبره اعتراف كامل.

امريكا حطمت منظمة القاعدة وبن لادن سيموت ان عاجلا او اجلا. ولكن البقايا الهاربة من منظمته سوف تكون اكثر وحشية في ردود افعالهم الانتقامية.

لا نحتاج لمزيد من التعليق لتحديد الموقف الرسمي لمصر كما عبرت عنه تصريحات وزير داخليتها (لواء شرطة). وزراء الخارجية يميلون للسيطرة على الحوار الدبلوماسي ويمكنهم في بعض الاحيان تقديم خدمات لفظية. فهي لا تخبرنا فقط بمعلومات عن الاتجاه الرسمي نحو الارهابيين المحليين والدوليين ولكنها ايضا تمنحنا قيس من ميل اخر لما بعد ?? سبتمبر: انظمة مثل مصر تعرف الان ان خدماتها مطلوبة في الحرب ضد الارهاب. وهم يعرفون ايضا ان النظام الامريكي نفسه قد اصبح ماكينة تعمل من اجل الامن، مثلهم، وفي النهاية هم يدركون ان الشعارات الامريكية عن الديمقراطية التي يهددونهم بها ليست سوى شعارات على الاقل في الوقت الحاضر. هذا المنظور للسياسة الدولية ربما يشكل الكثير من سياسات الشؤون الداخلية لمصر والبلدان الاخرى.

الجغرافية السياسية:

في سياستها الدولية عقدت مصر صداقات في كل انحاء الكوكب. ويدلل على ذلك ثقافيا مسارح اوبرا القاهرة (التي شيدت بتمويل ياباني كمركز ثقافي وتعليمي) ومسارح اخرى. وضيوف متنوعون من الكابوكي الياباني الى التانجو الارجنتيني (ولا ننسى عازف الكمان العظيم يهودي مينوهمين). في الجغرافية السياسية لهذه المنطقة المضطربة مصر نفسها تصبح جزءا مكمل لهذا الاضطراب. انها اكبر بلد عربي (وواحدة من اكبر ثلاث بلاد في الشرق الاوسط - البلدان الاخرى هما تركيا وايران)، وقد لعبت ثلاثة ادوار متميزة طوال اكثر من نصف قرن: صناعة حروب، وصناعة سلام، وصناعة مشاكل.

كصناعة حروب، كتابها المسلحة كانت المشارك الاكبر في كل الحروب العربية الاسرائيلية (1948، 1956، 1967، 1973). كما كانت حاضرة بشكل غير مباشر في حرب الخليج الاولى (حرب العراق ايران، التي استهلكت كل النصف الاول من الثمانينات) من خلال مبيعات السلاح للعراق. وفي حرب الخليج الثانية 1990/1991 وقفت مصر مع التحالف الدولي مباشرة ضد العراق من اجل تحرير الكويت. في السنوات التي سبقت ذلك فشلت مصر في تهدئة الطموحات الاقليمية الانتحارية للنظام العراقي من خلال ضمه الى حلف اقليمي باسم مجلس التعاون العربي (مصر العراق الاردن اليمن). كصانع حرب او مشارك في حروب حققت مصر انتصارات وخيبات وخمول عسكري (افضل اداء لها كان في حرب اكتوبر 1973) ومثل كل البلاد العربية لم تكن اكثر من مجرد متفرج على الغزو العسكري الاسرائيلي للبنان، وعاصمتها بيروت في 1982، الذي يصبح من المفترض اعتباره الحرب العربية الاسرائيلية الخامسة.

في دورها كصانع سلام تأتي نجاحاتها وخيباتها اكثر دويا. وانه لموضوع يثير بعض الجدل ان يكون مجرد منع تدهور الاوضاع في حالة معينة هو نجاح ام فشل. هنا ايضا يكمن تصنيف مصر كصانع مشاكل منذ ان اتهمت

باعتقاد سياسة قسدية لتجميد حالة اللا سلم/ لاحرب وتكتيك فلننتظر ونرى. في اسوأ الحالات مصر تتهم بانها اكثر حيوية في عدم تشجيع اتفاقات سلام معينة في فلسطين والسودان.<sup>103</sup>

احداث 11 سبتمبر والازمة الكبرى التي اثارها امسكت بمصر وهي منغمسة فعلا في ازمتا منطقتها: فلسطين، والعراق والازمة ذات الاهمية الخاصة لمصر، السودان. اولئك هم الثلاث بقع الساخنة في قوس الازمة لدى امين هويدي (وزير الدفاع السابق ورئيس جهاز الاستخبارات في حكم عبد الناصر).<sup>104</sup> ما فعله الحادي عشر من سبتمبر هو جر مصر الى اعماق مستنقع هذه المنطقة الصعبة. على مصر ان تتحمل المصاعب بينما هي تلعب دورا اقليميا ذا قيمة يدفع مقابله دوليا. كلا من هذا الدور وثمنه خاضع الان لمتطلبات الحملة الدولية التي تقودها الولايات المتحدة ضد الارهاب بعد 11 سبتمبر 2001. المفارقة هنا ان مصر والولايات المتحدة يتفان بشكل عريض ويتعاونان بشكل وثيق فيما يخص الارهاب بينما هما يختلفان بشكل واسع فيما يخص فلسطين والعراق والسودان. وكما يقولها امين هويدي: الولايات المتحدة ترى ان العالم افضل دون رأس صدام حسين في العراق، ورأس عرفات في فلسطين، وبرأسين للبشير وجارانج في السودان، ومصر ترى عكس ذلك.

في الحرب السادسة الحالية بين العرب والاسرائيليين، وفي الانتفاضة الفلسطينية الثانية، يتورط فيهما بعمق كلا من مصر الحكومية والغير حكومية بجميع مستوياتها. مصر الرسمية في دعمها للفلسطينيين، تقف مصر على حافة حرب حقيقية مع اسرائيل وتجمد اتفاقات السلام معها. بعض النشطاء والكتاب الغير حكوميين وشبه الحكوميين قد يفضلون لو ان المواجهة مع اسرائيل تتصاعد: طرد السفير الاسرائيلي (السفير المصري كان قد استدعي توا من تل ابيب)، وشطب معاهدة السلام وفي النهاية الذهاب الى ميدان المعركة الحربية. الكتاب الاقل صخبا في موضوع السلام (نشطاء السلام لا مكان لهم الان حيث يراهم الاخرون خونة<sup>105</sup>) حذروا من التصعيد الذي قد يؤدي تكرار التاريخ ويحمل اجيال المستقبل العربية بمسئولية تحرير مزيد من الاراضي المحتلة. كلا من العناصر الحكومية والغير حكومية تؤيد المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الاسرائيلي وما يسببه من دمار.<sup>106</sup> حول قضية الهجمات الانتحارية المثيرة للجدل ضد المدنيين الاسرائيليين يدعمها البعض من كل قلوبهم كوسيلة مقاومة شرعية، والبعض يعطي لها مبررات فكرية سياسية دينية،<sup>107</sup> والبعض يتخذها استشهادا دينيا للابطال المسلمين. ولكن القلة تراها كعمل من اعمال

103 كانت هناك محاولة مؤخرا لاقناع الفصائل الفلسطينية بوقف العمليات العسكرية ضد اسرائيل باستضافة القاهرة اجتمع لعشر فصائل فلسطينية (جبان تايمز، 23/1/2003).

104 الاهرام، 24/8/2002.

105 انظر على سبيل المثال استقالة الصحفي رضا هلال من جماعة كوبنهاجن (الجمعية المصرية للسلام).

106 الاشارة الى أي مصدر بهذا الخصوص يعني اننا سوف ننقل عن كل الصحافة المصرية والعربية! للاطلاع على مشاهد الدمار والخسائر الفلسطينية من حياة وممتلكات انظر: محمد امين المصري: حساب الرؤوس المتساوية، الاهرام، 8/12/2001.

107 لنموذج له مغزاه انظر فهمي هويدي: انهم ليسوا مدنيون، الاهرام، 11/12/2001؛ العمليات الاستشهادية، الاهرام، 16/4/2002.

اليأس يمكن فهمه ولكنه غير ذا جدوى. وقل قليلا جدا يرفضونها من حيث المبدأ باعتبارها جرائم فلسطينية ردا على جرائم اسرائيلية. ولكن المنظور الاخير تجده فقط على شكل همسات وفي احاديث خاصة. المناخ في مصر فيما يخص الام ومعاناة الفلسطينيين لا يدع مجالا كبيرا لاستكشاف صحة سياسات القادة والمحاربين الفلسطينيين. أي اراء انتقادية تتهم اوتوماتيكيا بالتجديف والخيانة.

رغم المصاعب التي ما تزال تسببها القضية الفلسطينية للنظام المصري الانها تساعده على صرف انتباه الشعب عن شؤونه الداخلية - فهي نعمة يرسلها الرب لاي نظام يواجه مصاعب داخلية. مأساة فلسطين لها جانبها الخير بالنسبة للانظمة العربية. انها تساعدهم على حكم رعاياهم بشكل استبدادي وقمعي تحت اعدار الكفاح الوطني. قالها عبد الناصر ذات مرة: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.<sup>108</sup> بالنسبة لهذا النوع من المبررات فهم يريدون عدوا او خطرا يكون "دايم وليس داهم". اسرائيل تخدم هذا الغرض جيدا مع التسليم بسلوكها العدوانية. النتيجة النهائية هي ان كل الشعوب العربية يجب ان تتصاع للحياة دون ديموقراطية بينما الشعب الفلسطيني يخسر على جميع الاصعدة: فلا يحصل على ديموقراطية ولا على وطن.

الاضطراب الحالي في الشرق الاوسط حول فلسطين هو ليس الا حلقة من هذه الدائرة الشريرة. انها تنعكس على مصر بنسبة ثقلا في المنطقة. ويظل حكام مصر بسببها يستقبلون المخاطر والمنافع. تحوم نخبتها المثقفة بين طرح منظور للسلام واخر للحرب،<sup>109</sup> لينتهي بهم الامر الى طبقة تطرح الوصفة الاقدم لحالة اللاسلم / واللاحرب. بالنسبة للجماهير في القاع يحبطون بشكل اكبر امام استمرار نفس الاعذار، ليس فقط لعدم توفير الديموقراطية ولكن لعدم توفير الخبز والزبد. تسمح النخبة لهم بدلا من ذلك اشباع رغبتهم في التعبير عن مشاعرهم نحو فلسطين، والعراق الخ القضايا الدولية ولكن ليس أي قضايا اخرى.

الخريف الذي اعقب فشل مباحثات كامب ديفيد الثانية والتي انفجرت الانتفاضة الفلسطينية الثانية في اعقابها، اجبر كل الاطراف على الرجوع الى المربع صفر.<sup>110</sup> ومع ذلك، ساءت الظروف (الوحشية الاسرائيلية ضد الفلسطينيين، والعمليات الانتحارية الفلسطينية). مضى الحشد والتعبئة الجماهيرية الحكومية والغير حكومية بالتوازي مع احداث انتفاضة الاقصى. مع احداث تدمير برجى التجارة العالميين وتدايعياتها، استشعرت مصر الرسمية جسامة الانزلاق

108 ارجع للشعر الانتقادي الموجع للشاعر احمد فؤاد نجم: مرحب... مرحب يا همبكة \* لاصوت يعلو فوق صوت المعركة \* فلتحيا تحيا.. الست معركة!

109 الحالة الدالة هي حالة المفكر اللاحم السيد ياسين الذي يكتب برصانة في القضايا العالمية وقضايا الشرق الاوسط (ويدفع ثمنا لذلك التعرض لانتقادات اخرين من امثال مجدي حماد، القومي العربي المتحمس،) ولكنه يتخلى عن طريقته احيانا، تحت الحاح الاحداث المأساوية، مستخدما لغة نارية غير معهودة منه. قارن على سبيل المثال بين مقالتيه في الاهرام: رؤية واقعية للانسان الجديد (24/8/2000) وما وراء النازية الجديدة (16/4/2002). ونفس التذبذب هذا ملحوظ في حالة محمد السيد سعيد.

110 لاحظ على سبيل المثال كيف قلبت الاحداث توقعات العالم البارز رشدي سعيد بان انصار السلام في الجانبين سوف ينتصران في النهاية. انظر مقالته: ضرورة الاستعداد لتحديات ما بعد التسوية، الاهرام، 12/4/2000.

وفرملت تعبئتها. حتى قبل 11 سبتمبر كان هناك استبدال له مغزاها لوزير خارجيتها، عمرو موسى، الخطيب المفوه، الذي كسب شعبية جارفة لظهوره حاسم الوجه امام الاسرائيليين، باخر، احمد ماهر، الدبلوماسي الاكثر هدوءا<sup>111</sup>. رغم ذلك، من الاسهل القول بانك سوف تكبح جماح الحشد والتعبئة من ان تفعل ذلك. الصلف الاسرائيلي يستمر في صب الزيت على النار؛ جيل من النشطاء كان نائما حتى ذلك الوقت نهض قائما، وسائل الاعلام الفضائية العربية، خصوصا الجزيرة، صنعت الكثير لتجعل من الحشد والتعبئة عملية لا يمكن الرجوع عنها، والفصيل الاسلامي من النشطاء جعل من القضية حربا مقدسة في تعارض مع قضية حقوق الانسان والتحرر القومي. حتى القوميون العرب واليساريون واليمينيون الاكثر علمانية تحدثوا بالخطاب الديني للاسلاميين. نشطاء حقوق الانسان ايضا، لم يستطيعوا التخلي عن اوراق اعتمادهم القومية لصالح معتقداتهم الكونية في مثل هذا المناخ.<sup>112</sup> اكثر من ذلك، تعبأ المناخ بالمزيد من ردود الفعل الامريكية على احداث 11 سبتمبر: فقد بدأ الامريكيون الحرب على افغانستان واخذوا يقومون بنوع من الفرز داخل العالم الاسلامي عموما. التوجه الامريكي نحو قضية العراق قد سبب حتى احتكاكات اكبر. قبل 11 سبتمبر بايام قلائل، دعت مقالة في الاهرام<sup>113</sup> لمبادرة عربية تتجاوز الجهود العراقية السابقة طوال 11 سنة لاستباق افاق املاءات امريكية وتفريغها. بعدها بعدة اشهر، اصبحت القضية العراقية هي الاخرى لا تقل سخونة عن القضية الفلسطينية. الحكومة المصرية، التي اختلفت مع الولايات المتحدة حول القصف العنيف للعراق في الحملة الثانية (ثعلب الصحراء 1998)، هذه المرة عارضت بالكامل الخطط الامريكية لتجديد الحرب على العراق.

بالنسبة لمصر غير الرسمية كانت الامور اكثر اثارا. باستثناء قلة قليلة من القوميين العرب المتطرفين، وهم حتى اقلية بين التيار القومي العربي الواسع، وقلة اخرى مرتشية عدا ونقدا، لم يكن احد غيرهم في مصر يحب صدام، البطل المعلن للوحدة العربية. بالنسبة لغالب المصريين، كان طاغية بغيضا لشعبه ومعتدي على جيرانه. كانت النخبة المصرية ايضا تراه، بشكل لا شعوري، معتدي مزيف يريد احتلال مكان زعامة مصر في العالم العربي. النشطاء المصريون، بدفاعهم عن العراق ضد العقوبات التي فرضتها الامم المتحدة و ضد العمليات العسكرية الامريكية غالبا ما اكدوا مرارا انهم يفعلون ذلك من اجل الشعب العراقي وليس من اجل النظام العراقي. ظهر من معظمهم انه كان يعتمد قول ذلك. ولكن ذلك لم يحل اشكالياتهم في كونهم بحكم الامر الواقع يدافعون عن صدام الذي كان عليهم ان يتعاملوا مع نظامه ويتعاونوا معه في بعض حملاتهم التي قاموا بها من اجل التضامن مع الشعب العراقي.<sup>114</sup> في الاخير

111 اسامة الغزالي حرب: الدبلوماسية المصرية. من حماسة عمرو موسى الى هدوء احمد ماهر، الاهرام، 9/7/2001.

112 مثال: بهي الدين حسن: نحو تنشيط التضامن الدولي مع الشعب الفلسطيني، الاهرام، 2/12/2001.

113 احسان بكر: العراق... والخطوة المتوقعة (2/9/2001)

114 انظر مؤتمر القاهرة، المقام في ديسمبر 2002، والذي يرى بوصفه تعبيرا عن هذه العلاقة. رغم انه كان من المفترض ان يكون عملا غير حكوميا فقد حضره بعض المسؤولين العراقيين الكبار. اعتبر بعض الناقدين هذا المؤتمر عملا من اعمال الاستخبارات العراقية (مثلا خطاب القارئ احمد عبد الله النواب: في القاهرة

الجزء الخاص بصدام قد انتهى واصبحت العراق وفلسطين، بالنسبة لبعض النشطاء العرب والمصريين، قضية واحدة.

115

لو استطلت القضية العراقية باكثر من ذلك، عسكريا ام لا، بصدام او دون صدام، سوف تصبح العراق فلسطينا اخرى تستمر لما بعد تسوية القضية الاصلية لفلسطين نفسها. وهكذا، لا يمكن ان يكون هناك سلام بين الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، والعالم الاسلامي الذي لا يقوده احد حيث ان اكبر بلاده، اندونيسيا، هي الان تعيش خرابا، وحيث ان اكبر لاعبيه، ومنهم مصر، تعيش في نفس الخراب، وحيث ان كل منهم لديه متاعبه التي يعتني بها. النظام العالمي الفوضوي المفعم بالارهابيين الاسلاميين والقوة العسكرية الامريكية يطل بوضوح في القضية الفلسطينية والقضية العراقية.<sup>116</sup> مصر كتب عليها ان تبقى رهينة لمثل هذه الحالة الكابوسية. اكثر من ذلك، لدى مصر مشكلة جغرافية سياسية اخرى في مواجهتها في السودان. محاولات امريكا فيما بعد 11 سبتمبر لتسوية الحرب الاهلية هناك يراها كثير في العالم العربي والاسلامي اوج النية الامريكية لترتيب هذا الجزء من العالم وفقا لمخططات السلام الامريكي. ولكن ذلك يصبح شيئا ذو طبيعة ملموسة اكثر منه تكهنات مستقبلية بالنسبة للمصريين. من هنا ينبع قلق المصريين حول اتفاق مشاكوس الذي ترعاه الولايات المتحدة (يوليو 2002) بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان وجيشها.

اكثر من ذلك، امام مصر مشكلة جغرافية سياسية اكثر خطورة يجب ان تواجهها في السودان. المحاولات الامريكية ما بعد 11 سبتمبر لتسوية الحرب الاهلية هناك يراها العديد في العالم العربي والاسلامي تجسيدا للنية الامريكية في فرض الوصاية الامريكية على هذه المنطقة من العالم. ولكن هذا الامر ذو طبيعة مادية اكثر منها تصورات بالنسبة للمصريين. من هنا مخاوفهم من اتفاقية مشاكوس تحت الرعاية الامريكية (يوليو 2002) بين الحكومة السودانية وحركة/جيش التحرير الشعبي السوداني.<sup>117</sup> الاستفتاء عن حق تقرير المصير للمواطنين في جنوب السودان بعد فترة انتقالية تراه مصر خطرا كامنا يبرز في باحتها الخلفية. تكره مصر الرسمية الاستفتاءات رغم ان الرؤساء المصريين يحتلون مناصبهم بواسطة جمهور الناخبين المصريين من خلال الاستفتاءات فقط. السبب وراء ذلك هو ان الاستفتاء السوداني المتوقع ربما ينتج عنه انقسام السودان الى دولتين مستقلتين. تلك النتيجة يراها العديد من المصريين تهديدا

ولندن.. حجة مماثلة من اجل ليلى، الحياة، 3/1/2003.

115 تصريح في 15 يناير 2003 من اللجنة القومية لمناهضة العدوان الصهيوني الامريكي. يحدد البيان ايضا امريكا واسرائيل كعدو واحد. تجمعات اخرى تشمل الحملة الشعبية المصرية ضد العدوان على العراق.

116 لمطالعة نقد موجز ودقيق للمنظور الامريكي والغربي للعالمين العربي والاسلامي انظر: صلاح سالم: العرب في مواجهة الاختبارات الاستراتيجية، الاهرام، 23/10/2002. انظر ايضا: محمد حسنين هيكل: موعد مع الهموم العربية في العاصمة البريطانية، العربي، 15/7/2001.

117 للاطلاع على تحذير من مقدم الامريكيين المبني على فشل اللاعبين الاقليميين فيما قبل 9/11 انظر: حلمي شعراوي: قراءة اخرى للمسألة السودانية، الاهرام، 25/7/2001؛ احمد نافع: المسألة السودانية والمسيرة المتصاعدة لجارانج، الاهرام، 18/8/2001.

خطيرا لشريان الحياة في مصر: نهر النيل. سيل من الكتابات الصحفية حول السودان، ونهر النيل والبحر الاحمر يعكس هذا القلق فيما بعد 11 سبتمبر وفيما بعد مشاكوس.<sup>118</sup>

ما يحمله المستقبل للمصريين في السودان سوف يكون مترتبا على ماضيهم هناك. من ايام السودان الانجليزي المصري في القرن التاسع عشر، وقمع ثورة المهدي في 1881، والاستقلال في 1956، والانقلابات العسكرية المختلفة التي ايدتها الحكومة المصرية، ارتكبت الادارات المصرية اخطاءا كبيرة في السودان. ولكن النخبة المصرية نادرا ما امتلكت الشجاعة للاعتراف بهذه الاخطاء وتميل لانكارها او تبريرها بدلا من ذلك.<sup>119</sup> ينظر العديدون في السودان الى مصر كقوة اقليمية ما دون- امبريالية، ساعدت على قمع نضال تحررهم الوطني لفترة طويلة ولما ارتضت مكرهة استقلالهم استمرت في قمع ديموقراطيتهم لصالح عديد من الحكام المستبدين العسكريين. وقد كانت هناك ايضا منازعات على الحدود حول مثلث حلايب الصغير في التسعينات. ذلك هو الشعور الدفين بعمق والذي لم يغيره الخطاب التجميلي عن المصير الاخوي المشترك او حتى بواسطة الدور المصري الاكثر ايجابية الذي لعبته مصر في السودان لفائدة شعب السودان: ترقية المؤسسات التعليمية والوساطة لانهاء الحروب الاهلية. ايضا، هذه المشاعر لم تخفها حقيقة ان السودان نفسها كانت مصدر لمشكلة خطيرة في مصر، خصوصا وهي تحت حكم نظام يأوي ارهابيين. على اية حال، الاخطار التي تنتظر مصر في السودان عالية، مهما كان العائد من التسويات التي قد تتم، بعد ان استثمرت امريكا بتواجدها المباشر في السودان وتجاوزها لمصر. والمنتظر هو مزيد من التوتر الاقليمي، ان لم يكن حرب مياة النيل والمزيد من لجان التضامن مع الشعب السوداني.

الفشل في السودان ليس الا مثال على خيبات مصر في المنطقة. الامثلة الشهيرة كانت انهيار الوحدة المصرية السورية (1958 - 1961) وهزيمة 1967. ومع ذلك احرزت مصر نجاحات كبرى وصغرى اخرى. المشهور منها، حشد وتعبئة الامة العربية بعد حرب السويس 1956 وانهاء الحكم الاوروبي فيما تبقى من البلاد العربية في شمال افريقيا (خصوصا الجزائر) الى جنوب اليمن. حتى الخيبات الكبيرة يراها البعض لا تخلو من جوانب ناجحة. فهم يرون في اول محاولة لتوحيد بلدين عربيين كنجاح للشجاعة والاداء اثناء حرب 1973 كان افضل مما كان عليه اثناء حرب 1967 ويشار اليه كنجاح للتعويض. تشمل النجاحات الاخرى استعادة العلاقات مع البلاد العربية في ظل حكم مبارك التي كانت قد قطعت اثناء حكم السادات بعد اتفاقية السلام المصرية الاسرائيلية (وتضمن ذلك عودة الجامعة العربية الى مقرها في القاهرة. اضافة الى ذلك، نجحت مصر في تخفيف التوتر بين سوريا وتركيا اللتين كانتا على

---

118 كمثل صغير انظر: احمد نصر الدين: هل تعبث اسرائيل في منابع النيل؟، الاهرام، 16/8/2002. ايضا، امن البحر الاحمر في خطر، الاهرام، 29/12/2001.

119 القضية المعيرة عن ذلك هي رواية المؤرخ المصري عبد العظيم رمضان عن الموضوع، انظر مثلا كتابه: انبطاح الامبريالية المصرية في السودان، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1994. انظر ايضا تقريره لارائنا المختلفة (مقالتنا: مصر والسودان. دفع ما تأخر، الخليج، 21/3/1992) التي نشرها في سلسلة اعمدة صحفية في جريدة الوفد.

وشك الحرب في نهاية التسعينات. ورغم قلق مصر من التعاون العسكري بين تركيا واسرائيل، فقد استطاعت ادارة تحسنا في العلاقات مع تركيا عموما. نفس التحسن كان ظاهرا للعيان في علاقاتها مع ايران.<sup>120</sup>

في سياستها الدولية، تشعر مصر، كما يمثلها حكامها ومتفقيها والمهتمون، بمشكلة في صورتها امام عيون العالم.<sup>121</sup> وفي سياستها الاقليمية لديها مشكلة في الدور. كلا المشكلتان تبلغ معها حد العقدة النفسية.

احد الكتاب المصريين من الجيل الاوسط (ناشط طلابي سابق وحالة متميزة لاحد الاسلاميين الذي تحول الى ليبرالي) امتلك الفناعة والشجاعة ليكتب حول الدور الاقليمي المتدهور لمصر قبل 11 سبتمبر.<sup>122</sup> اثارت مقالة انور الهواري زملاءه وقرناءه اضافة الى الحرس القديم في رد فعل<sup>123</sup>. الوطنية الرومانسية<sup>124</sup> للمتقنين المصريين نادرا ما تسمح لهم بالتمييز بين ما هو كامن ومحتمل وبين ما هو فعلي في دور بلادهم في المنطقة. انهم على مثل هذه الدرجة من الحساسية لاي نقد لمصر، خصوصا لو جاء من غير المصريين. في الحقيقة، هم لا ينقصهم هوس المتقنين العرب بمصر الذين يشعرون بالحاجة لرعاية الاخ الاكبر.<sup>125</sup> اولئك المتقنون المصريون دون انكار لديهم كل حق في الرد وحتى في توبيخ كل الكتابات المسفة لهؤلاء المرضى بكرهية المصريين؛ العرب وغير العرب على السواء. ولكن مشكلة الاكتمال الفكري تعوزهم عندما ينفون احيانا او يلتفون حول ما يعرفون انه صحيح، كما يعترفون بذلك في

---

120 لاحظ المجهود المستمر من قبل مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية في الاهرام في تمهيد الطريق نحو استعادة كاملة للعلاقات بين البلدين. المركز ينشر مطبوعة دورية اسمها دراسات ايرانية (رئيس تحريرها محمد سعيد ادريس) وحضر مديرها وباحثون اخرون مرتين حوارا مصريا ايرانيا في طهران. ان ذلك يذكرنا بسياسة البنج بونج الامريكية الصينية الشهيرة، المسماة وقتها البن بن ديبلوماسي. انظر عبد المنعم سعيد: تقارير من طهران والقاهرة، الاهرام، 23/12/2002 و 30/12/2002.

121 مثلا رد الفعل الغاضب في مصر بعد كل فيلم وثائقي يذاع في اوروبا وامريكا حول قضية الفقر وجوانب اخرى من الحياة الاجتماعية في مصر. مثلا فيلم محطة السي ان ان عن ختان الاناث في مصر. ايضا، فيلما وثائقيا مانيا يظهر القذارة والزحام في القاهرة. عنف الصحفي ابراهيم حجازي الالمان وقدم احتجاجا في سفارتهم في القاهرة. انظر مقالته في الاهرام، 18/5/2001 و 1/6/2001.

122 انور الهواري: سياسة مصر الخارجية بين النظام العالمي واوهام الاخ الاكبر، الحياة، 15/2/2000.

123 كمثال: مصطفى الفقي: شمس لا تختفي، الاهرام، 21/3/2000؛ اسامة الغزالي حرب: الشمس تشرق وتغرب، الاهرام، 27/3/2000؛ عاطف الغمري: منظور امريكي: توازن القوى يميل لصالح مصر، الاهرام، 27/3/2000. لمقالات ظهرت مؤخرا انظر: نعمان جلال: تقرير التنمية البشرية والدور المصري، الجمهورية، 22/8/2002. انظر ايضا مقالة الهواري الثانية: شخصية مصر العربية تبدأ من الداخل، الاهرام، 17/4/2000. وحول شخصية مصر العربية ايضا انظر وجهات نظر متنوعة من محمد السعيد ادريس ومحمد البديري: الاهرام، 24/4/2000.

124 لتحليل نقدي للطبعة السائدة من الوطنية المصرية انظر كتابنا: الوطنية المصرية، ميريت، القاهرة، 2000. انظر ايضا: جمال عبد الجواد: الوطنية المصرية في عصر العولمة، الاهرام، 11/6/2002، سامر القرانشاوي: الوطنية المصرية بين الصح والخطأ والوعول، الحياة، 2/7/2001. للاطلاع على قضية الهوية الاساسية انظر سلسلة مقالات انور عبد الملك بعنوان: البحث عن مصر، الاهرام، 16/5/2000، ثم كل اسبوعين.

125 انظر مثلا الدفاع عن مصر بقلم الكاتب الصحفي اللبناني البارز جهاد الخازن في الحياة، 22/6/2001 وتواريخ اخرى. انظر ايضا المقالة المفيدة بقلم المتقف التونسي صلاح الدين الجورشي: رغم كل شيء... الدور المصري هو ضرورة عربية، الحياة، 26/9/2002. الكاتب الصحفي الكويتي احمد الجارالله (رئيس تحرير السياسة العربية واراب تايمز الانجليزية) معروف بتأييده الثابت لمصر.



حواراتهم الجانبية. ان يكون من الافضل، ان لم يكن لديهم القدرة سياسيا على تحمل الاقرار بالحقائق، ان يمتنعوا عن الكلام؟ ام يجب عليهم استدعاء اتهام اخر وهو انهم ، بالحرف، مجرد موظفون (عند الدولة) يتلقون الاوامر فقط لتفصيل كتاباتهم بناء على طلبات المسؤولين (حين يردون على توماس فريدمان، وعلى الجزيرة وعلى أي شخص آخر)؟

تلك هي الاسئلة التي تنتظر اجابة من المثقفين المصريين. دور بلادهم الذي انتعش في الحرب الكوكبية ضد الارهاب لا يقدم تمويها على هذه القضايا. انهم يحتاجون لقراءة المقالة الافتتاحية للكاتب اللبناني حازم صاغية في جريدة الحياة، والاستماع بأذان صاغية لافكارها.<sup>126</sup> في هذه المقالة، الكاتب، المصاب بهوس حب مصر ويفسر خطأ على انه مصاب بداء كراهية المصريين، حذر المصريين من نظرية المؤامرة التي يبنون كل نظرتهم التاريخية للعالم عليها: العالم لا يتأمر على مصر، بل العكس انه يمنحها معاملة تفضيلية. نفس الشئ ينطبق على الاخوة العرب، الذين يريدونها تقوم بدور اقليمي اكثر فعالية. اذا كانت خطوات مصر تتلأ تحت وطأة اقتصادها الضعيف، فهي يجب ان تسأل نفسها عدة اسئلة عن نظامها الجامد المتصلب، ومؤسساتها الهرمية العتيقة، وافتقارها للفعالية والشفافية، وقيادتها الاقل من المتوسط وفوق كل شيء ان تتساءل عن التفكير السائد الذي يحافظ على استمرار هذا الجمود.

الاسئلة العظمى تتطلب اجابات عظمى. بالمقابل، تتطلب الاجابات العظمى هياكل عظمى لتكتشف هذه الاجابات وتزودنا بها. المثقفون هم فقط جزء، مع كل اهميتهم ومكانتهم. مكونات آخران يجب ان يرفعا صوتهما. الاول، النخبة الحاكمة يجب ان تدرك الان انها لا تستطيع بعد الان ان تستمر في استخدام نفس النظام القديم ليبروقراطية الدولة القائمة على اساس عسكري تدار بواجهة فاسدة وبنفس فساد الحزب الواحد. الثاني، الشعب المصري<sup>127</sup> الذي يدرك ولكنه يأخذ وقتا حتى يتحرك بطاقته القصوى ان النظام المصري لا يستثنى من الحكمة الخالدة: ما لا ينصلح حاله... يجب ان ينتهي!

## السياسة الداخلية

من ناحية التصنيف: مصر ليست دولة ديموقراطية. تقريبا مصر حكم استبدادي متعدد الاحزاب. من ناحية مقارنة، نظامها السلطوي اقل قمعية من انظمة بعض الدول العربية الاخرى (العراق، سوريا، ليبيا، تونس الخ).<sup>128</sup> ولكنه استبداد في نظر المصريين، المحرومين من حق الاختيار الحر لحكم رئيس اخر او حزب اخر. اختيار السلطة

126 مصر: محاولة لفك الطلسم، 29/7/2001.

127 انظر صلاح سالم: المصريون يمارسون السياسة بطريقتهم الخاصة، الحياة، 30/3/2001.

128 عن الديموقراطية كفضية ميثوس منها في البلاد العربية انظر مثلا: ديفيد جاردر: الديموقراطية هي شبح فقط، فاينانشال تايمز (نهاية الاسبوع)، 11 و 12/5/2002. انظر ايضا جمال عبد الجواد: التحول الديموقراطي المتردد في مصر وتونس، مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، 1998.

الاعلى او تغييرها خارج أي مناقشة. ما دون هذا المستوى، هناك بعض مظاهر التعدد السياسي واحتمال المعارضة الجزئية.

التعددية في مصر، والتي بدأت عام 1967 مع الرئيس السادات، هي تفاصيل في اطار اوسع من النزعة السلطوية، التي بدأت عام 1952 مع الرئيس عبد الناصر. "الاب"، وعمره نصف قرن، يرعى ويسيطر على "ابن" مراوغ ولكنه مع ذلك مطيع، عمره ربع قرن. عند الاحتفال "بعيد ميلاد الابن"، الذي نظمه مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية بالاهرام، كان المشاركون الاكاديميون والسياسيون خاشعين وحزاني بسبب اعتلال صحة "الابن". بمناسبة الذكرى الخمسين لميلاد "الأب"، ثورة 23 يوليو 1952، اقيمت احتفالات كبيرة تحت الرعاية الرسمية للدولة في كل انحاء البلاد، خصوصا في وسائل الاعلام. اخذ النظام القائم يعيد تأكيد الاساس الابوي لشرعيته، والسلطة والزعامة. لم يكن هناك الا قليل من الذكر لمرض الاب العضال في 1967 (هزيمة حرب الستة ايام) ولكن الكثير والكثير عن العملية الجراحية الناجحة في 1973 (حرب اكتوبر). الحرب الاخيرة قدمت على انها اساس مجدد لكل الشرعية، والسلطة والزعامة. مبارك اصبح التعبير المثالي عن ذلك حيث انه لم يكن من المشاركين في 1952 ولكنه كان مشاركا من القمة في 1973<sup>129</sup> (يسمى في وسائل الاعلام بطل الضربة الاولى - بمعنى الضربة الجوية التي كان وقتذاك قائدا للقوات الجوية المصرية). لم تستطع اشكال الاحتفالات اخفاء حقيقة ان الاب لا يعتبر اب لكل الامة من قبل الاسلاميين، والليبراليين والآخرين في مصر ممن عانوا من قمع الاب.<sup>130</sup> في رأيهم الاب ينتمي فقط الى طلاب السلطة، واليساريين (خصوصا الناصريين) والقوميين العرب الذين باسمهم ما زالت تحكم البلاد. ما تزال وصفة الاب لنظام الحكم تتبع: نفس الاستبداد، ولكن مع شوائب اضافية من الليبرالية المحدودة؛ لتتاسب العصر.

بين 1952 و 1967 حكمت المؤسسة العسكرية (وجهاز الاستخبارات في قلبها) مصر بالمعنى الحرفي الضيق.<sup>131</sup> وبعد ذلك وحتى الآن استمرت المؤسسة العسكرية في الحكم، ولكن بالمعنى العريض.<sup>132</sup> بغض النظر عن الامتيازات التي تعطى لرجال الجيش اثناء الخدمة والمناصب التي يشغلها كبارهم في الحياة المدنية (خصوصا محافظي المحافظات) عند تقاعدهم، يبقى احد الاليات هو امتيازهم الاعلى: انهم يحتفظون بمنصب رئيس الجمهورية لرجل عسكري. وحتى ينفذ ذلك، يجب ان يكون هناك مرشحا واحدا ينتخبه الناخبون. ولضمان هذا الترشيح الاحادي يجب

129 في لوحات بانوراما اكتوبر صوروا مبارك تقريبا كأنه القائد الاول لهذه الحرب.

130 كمثال على وجهات نظر المنتسقين انظر: صبري سعيد: الخطاب السياسي لما بعد دولة يوليو 1952، الوفد، 30/7/2000، سامر القرنشاوي: انقلاب وليس ثورة.. الخاسر هو الديمقراطية، الحياة، 23/7/2002.

131 طالع المصدر الاساسي لانور عبد الملك: مصر: مجتمع عسكري (طبعا مختلفة بالفرنسية والانجليزية) وهناك طبعة عربية عن المحروسة، القاهرة، 1998.

132 انظر مؤلفنا: الجيش والديموقراطية في مصر، دار سينا، القاهرة، 1990. لتطالع مؤلفات احدث بالفرنسية: الجيش والامة في مصر. السلطة المدنية، السلطة العسكرية (يتضمن اسهامات بالانجليزية لخالد فهمي، واحمد عبد الله، وروبرت سبرينجورج، وجون سفاكياناكيس وجمال عبد الجواد سلطان)، المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية، باريس، 2001.

ضمان ثلثي الاغلبية الدستورية لاعضاء مجلس الشعب (البرلمان) التي ترشح شخص رئيس الجمهورية. وحتى يتم ذلك، يجب ان يمتلك حزب حاكم وحيد هذه الاغلبية. نتائج انتخابات البرلمان يجب ان تضمن الحصول على هذه الاغلبية، حتى لو تطلب الامر تزويرها. هذا هو القانون الغير معن للعبة النظام السياسي في مصر. الباقي تفاصيل متنوعة الاهمية تدور حول هذه القضية العسكرية/الرئاسية.

ينبع الجمود والتصلب في النظام السياسي من هذه النقطة المحورية في بنيانه. انه لا يسمح بانتعاش نخبة مدنية تطالب بحقها في حكم البلاد، ولا يسمح بعقد انتخابات نزيهة تكون قاعدة واساس لاختيار حكام البلاد؛ وبالنتيجة لا يسمح النظام السياسي بالمشاركة الجماهيرية في ديناميكيات النظام حيث المطلوب من المواطنين فقط هو تأكيد ما يقرره الآخرون لمصالحهم. ولا يصبح مدهشا ان يقدم هيكل السلطة الاحادي هذا على القليل جدا من التغييرات المؤسسية طوال النصف قرن الماضي. هذا الاحتكار يتضمن الحزب الحاكم (الحزب الوطني الديمقراطي الذي تأسس عام 1978)، وهو حزب الرئيس، وحزب الدولة، وحزب الحكم الدائم. هذا النظام هو امتداد لنظام الحزب الواحد (الخاضع للعسكريين) عند عبد الناصر والفترة المبكرة من حكم السادات (هيئة التحرير 1954، والاتحاد القومي 1958، والاتحاد الاشتراكي العربي 1961 وحزب مصر العربي الاشتراكي 1976). ولكن عند مستوى ذاتي معين فالامر المدهش ان تدوير الشخص/المنصب داخل النخبة الحاكمة هو ايضا يتم في نطاق ضيق جدا وببطء شديد. ثلاثة من الاربعة الكبار (اثان منهم بخلفية عسكرية) من عائلة الحكم في مصر، تحت الرئيس وتحت عائلته الشخصية، هم سياسيون طاعنون في السن احتفظوا بمناصبهم لربع قرن. احد هؤلاء الثلاثة، صفوت الشريف (نائب رئيس الوزراء ووزير الاعلام الذي يتحكم في وسائل الاعلام)، هو الرجل الثاني في صف القيادة للحزب الوطني الديمقراطي بعد الرئيس مبارك نفسه. صفوت الشريف، كسكرتير عام للحزب الوطني الديمقراطي، والذي خدم كضابط في الاستخبارات العسكرية في مطلع شبابه، يجسد رمزا لكامل قصة النظام الحاكم الحالي في مصر. اذا كان من الممكن اضافة شخصية خامس لهؤلاء الرجال الاربعة، فلن يكون شخصا اخر سوى جمال مبارك، الابن الاصغر للرئيس. ليس فقط الاحتكار الموضوعي للسلطة هو البلاء الذي نزل بالمصريين، ولكنه ايضا الجمود والتصلب الذاتي لهذا الاحتكار.

الاداء السياسي في مصر في الاعوام القليلة الماضية يدل على نظام تمضي خطواته في فوضى وارتباك رغم اقتصاده الضعيف وانهايار الحياة المدنية فيه (العنف والفساد والطائفية التي تحدثنا عنها اعلاه). الادوات الاجتماعية الاقتصادية الرئيسية التي يستخدمها من اجل البقاء هي بالاساس اجتذاب موارد اقتصادية في حدودها الدنيا (الموارد الاقتصادية الخارجية التي ذكرناهم اعلاه) ومحاولة تمرير احساس مؤقت بالامان في الطبقة الوسطى. ولكن الادوات السياسية التي يستخدمها النظام من اجل البقاء ذات مغزى اوسع. انها تشمل الثمن الذي يجب ان يدفعه بلد من اجل هيمنة واستمرار نظام حكم.

## القمع والانتكاس

عندما مات الرئيس ناصر في سبتمبر 1970، تبوأ السادات، نائب رئيس الجمهورية، السلطة بسهولة نسبية. ولكن كان عليه شق طريقه بالقوة فيما بعد ضد الناصريين الذين ارادوا الاستمرار في الحكم من خلف ظهره. وقد اطاح السادات بهم في مايو 1971 وتكلم عن انتهاء دولة المخابرات (او الدولة البوليسية) واشاعة الديمقراطية في النظام. مع الديمقراطية الهلامية الجديدة، كتب للصحافة عدد كبير من ضحايا القمع في سجون عبد الناصر، ونشروا الكتب<sup>133</sup> عما حدث لهم في معتقلاته وسجونهم، ورفعوا قضايا امام المحاكم من اجل اعادة الاعتبار والتعويض<sup>134</sup>. عند وفاة الرئيس السادات نفسه تلقى وهو في العالم الاخر انتقادات حادة من خصومه، خصوصا من هؤلاء الذين زج بهم في السجن جماعة بضرته في سبتمبر 1981، في الايام القليلة التي سبقت اغتياله. ولكن رغم ان ذلك يشار اليه باسم مذبحه سبتمبر، فقد جاءت الانتقادات العنيفة ضد السادات سياسية الطابع بشكل كبير. لم تكن هناك قضايا ملموسة ضد تعذيب منهجي اثناء حكم السادات طوال 11 عاما قضاها في الحكم. ربما كان السادات وغدا في نظر العديد من خصومه، ولكنه لم يكن جزارا. استخدم التعذيب مباشرة عقب موته للكشف عن قاموا بعملية الاغتيال. ومذاك، اصبح التعذيب علامة مسجلة على نظام مبارك<sup>135</sup>. عندما يموت الرئيس مبارك سوف تكون هناك قضايا عديدة جدا للتعويض (خصوصا من قبل الاسلاميين) لدرجة ان فترة عبد الناصر سوف تبدو امامها قطرة في محيط. هذا اذا لم ترتب فترة ما بعد مبارك نفسها بطريقة تحتفظ بالملفات فيها مغلقة.

كلا من ناصر والسادات حكما مصر بقانون الطوارئ لسنوات عديدة. ولكن حدث انهما رتبا الامور بحيث يرفع قانون الطوارئ لعدة سنوات قلائل وحكما دون قوانين استثنائية. مبارك، الان وقد مرت 22 سنة وهو في الحكم، لم يكن قادرا ابدأ في اي وقت من الاوقات على ان يدير حكمه يوما واحدا دون قانون الطوارئ<sup>136</sup>. مبارك سوف يسجل حكمه في كتب التاريخ المصري كواحد من فترات حكم الطوارئ والقوانين الاستثنائية. مبرراته الاعتذارية بانه رغم ذلك احتفظ بدرجة من الاستقرار (والتي وصفناها اعلاه كاحتكار وتصلب)، وبدرجة من الديمقراطية (وصفناها اعلاه بحكم الفرد

---

133 خصوصا كتب السيرة الذاتية للشيوخ والايوان المسلمين. مثلا رمز التعذيب سجن ابو زعلب القريب من القاهرة كما رواه كتاب الهامي سيف النصر الذي يحمل اسم السجن.

134 كسب العديدين القضايا التي رفعوها امام المحاكم. تضمنت احكام المحاكم، اضافة الى التعويضات المالية، ادبا انساني يدين التعذيب. مثلا، قضية شهدي عطية الشافعي، الزعيم الشيعي الذي تم تعذيبه حتى الموت في الستينات - وثائق المحاكمة التي جمعها رفعت السعيد في كتاب اسمه الجريمة. (انظر ايضا ديوان الشعر الذي الفه محمود المستكاوي باسم رحلة الحجلات (رحلة الاغلال).

135 من الادبيات الكثيرة عن التعذيب في مصر انظر بعض الامثلة الحديثة في: محمود العسقلاني وخلف علي، التعذيب... مثل الماء والهواء، العربي، 24/3/2002؛ حسين عبد الرازق: التعذيب. جريمة مستمرة، الوفد، 16/8/2002. انظر ايضا التقارير السالف ذكرها الصادرة عن منظمات حقوق الانسان القومية والولية.

136 حسين عبد الرازق: 20 سنة طوارئ، الاهالي، 10/10/2001. ولا نحتاج للقول، هناك ايضا ادبيات كثيفة عن الطوارئ في صحافة المعارضة المصرية وفي تقارير مراكز حقوق الانسان المصرية خصوصا المنظمة المصرية لحقوق الانسان.

متعدد الاحزاب)، والاكثر اهمية، انه قد انقذ مصر من الارهاب واستيلاء الاسلاميين على الحكم. قد يكونوا على حق. ولكنهم في حاجة لاعادة حسابات ثمن انقاذ نظام على حساب بلد.

في حملته على الارهابيين، على وجه الخصوص، والتهديد الاسلامي، بشكل عام، طبق نظام مبارك سياسة القمع الجماعي (حملات مسلحة للقبض على الناشطين، وتعذيبهم في السجون، وانشاء المحاكم العسكرية لمحاكمتهم<sup>137</sup>) والنتائج هو جهاز دولة يبطش بالمواطن العادي وليس فقط المتمرّد الخارج عليه. صارت وحشية البوليس ممارسة روتينية تتفوق على ممارسات جيش احتلال اجنبي. لتطهير النقابات المهنية من الاسلاميين، الذين سيطروا على مجالس ادارتها، كانت الصيغة هي التخلص من الطفل بخرطوم مياة الغسيل. النقابات المهنية، وهي منصة التحكيم لنشاط الطبقة الوسطى، انتهت جثة هامدة والبعض الاخر منها تم ترتيب ادارته كيفما اتفق بواسطة قضاة وليس مجلس ادارة منتخب<sup>138</sup>. وحتى يتخلص النظام من الاسلاميين في الطيف السياسي الاوسع اغلق النظام بشكل فعال حزب العمل وجريدته لسان حاله الشعب، وهو اطار عمل معتدل اخر لامتصاص النشاط الاسلامي. لقد فعل ذلك عبر تحريض الحزب ضد رواية اتهمت بالكفر في منتصف عام 2000.<sup>139</sup> اخيرا غير النظام تكتيكة ازاء الاخوان المسلمين وضربهم بقوة، بسجن بعض قياداتهم<sup>140</sup> والتحرش بصفوفهم القاعدية عبر البلاد<sup>141</sup>. شكل الاخوان المسلمون قلب المعارضة في برلمان 1987، وهو احسن برلمانات حسني مبارك لحد بعيد، رغم انه واحد من ثلاثة برلمانات في عهده صدر ضدهم حكم بعدم الدستورية من قبل المحكمة الدستورية.

النظام الذي يحكم بثلاثة برلمانات غير دستورية لم يترك مؤسسة سياسية او مهنية سليمة.<sup>142</sup> كان قمعه كله باسم مكافحة الارهاب والقضاء على الاسلاميين. كما ان وسائل الاعلام لم يوفروها ايضا. في 1995/1996 صدر على عجل تشريع جديد يقيد من حرية الصحافة جعل وضع الصحفيين في السجن اكثر سهولة. خرج المشروع في وجه مقاومة شرسة من الصحفيين، بمن فيهم الصحفيون الموالون للحكومة. تعرض للقيود الادارية ايضا الموقع الاخير

137 محمد صلاح: القاهرة: المحاكم العسكرية من اجل ضمان نسيج الدولة، الحياة، 4/1/2002.

138 انتقدت منظمة حقوق الانسان فرض الوصاية القضائية على النقابات المهنية، الاحرار، 24/12/2000.

139 من الارشيف الضخم الذي كتب عن الرواية، ومظاهرات طلاب الازهر وتحريض صحيفة الشعب، انظر مثالا واحدا، ابراهيم عيسى: بعد انك... انا اختلف معك، اخبار الادب، 14/5/2000 والشعب 16/5/2000.

140 من المعروفين الدكتور عصام العريان الشخصية الابرز من الجيل الوسيط (ناشط طلابي سابق وشخصية قيادية في نقابة اطباء) الذي امضى عدة سنوات في السجن في النصف الثاني من التسعينات.

141 للاطلاع على موضوع القبض على الطلبة الناشطين من جماعة الاخوان المسلمين انظر: الحياة، 27/1/2002. وعن موضوع القبض على اساتذة الجامعات انظر: كريم صبحي: معظم المنخرطون مع الاخوان هم اساتذة جامعات، روزا اليوسف، 12/1/2002؛ قضية اساتذة الجامعات، افاق عربية، 31/1/2002.

142 عن هذا الملف الضخم حول تراجع الاحزاب السياسية (العد التنازلي لتجمد الاحزاب، الاحرار، 5/11/2001)، وعن القيود على كل المنظمات المهنية والسياسية، (احمد عبد الهادي: ملخص تقرير منظمة العفو الدولية، 3/6/2002) وعن ترتيب مصر في تقارير الامم المتحدة عن الحريات السياسية.

الباقى من النشاط الاجتماعى الغير سياسى الاطار، المنظمات الغير حكومية والمجتمع المدنى عموما، فى تشريع صدر عام 1999 (حكم عليه ايضا بعدم الدستورية) وفى عام 2002. تلك القيود مثلت رد فعل على النشاط الاسلامى فى هذا المجال. اضافة الى ذلك، فقد حاربوا نشاط منظمات حقوق الانسان الاكثر علمانية التى فضحت انتهاكات النظام على المستوى الدولى. القبض على سعد الدين ابراهيم ومحاكمته، مهما كانت الاسباب المعلنة او الحقيقية، اشتملت على رسالة ارهاب وتخويف للنشطاء القيادين فى المجتمع المدنى، الذين لا يمتلكون شهرة ولا يتمتعون بحماية دولية مثل سعد الدين ابراهيم.

ولكن، هل فعلا حمى نظام مبارك مصر من الاسلاميين؟ من الارهابيين... نعم بشكل كبير، رغم الخلايا السرية التى تكتشف من حين الى اخر<sup>143</sup>. من الاسلاميين عموما... لا.<sup>144</sup> فلديهم جمهورا فريدا فى المجتمع ولا يستطيع احد انهاءهم (من الافضل محاولة اصلاحهم اى عقلنتهم من خلال استيعابهم فى ديموقراطية اوسع)<sup>145</sup>. كبت النظام البهجة المبكرة فى البلاد عند اجراء انتخابات يشرف عليها لأول مرة القضاة عام 2000. رغم ظهور تلك الانتخابات فى المرحلة الاولى اكثر نظافة من اى انتخابات اخرى، عاد النظام فى المرحلة الثانية والثالثة الى عاداته القديمة وتدخل فى الانتخابات وقام بالتزييف. جرى ذلك بالضبط لايقاف مرشحي الاخوان المسلمين من الوصول الى البرلمان. ومع ذلك، فقد وصلوا، وشكلوا اكبر مجموعة معارضة فى البرلمان السابق، اكبر من كل الاحزاب المعارضة المستضعفة من اليسار ومن اليمين معا<sup>146</sup>. فى الجولتين الاخيرتين للانتخابات، طبق النظام تكتيكة الانتخابى ضد المرشحين الاخوان المسلمين (امرأة فى الاسكندرية فى انتخابات 2000 ومتحدثهم البرلمانى السابق فى

---

143 احمد موسى: 83 ارهابى من منظمة الوعد، الاهرام، 14/10/2001؛ محمد صلاح: مصر: منظمة متعددة الجنسيات امام المحاكم العسكرية، الحياة، 15/10/2001؛ محمد موسى: 170 ارهابى من منظمة المنيا، الاهرام، 17/10/2001؛ محمد صلاح: مصر: محاكمة عسكرية ل 257 اصولى، الحياة، 10/11/2001؛ عبدو زينيه: احياء طلائع الفتح (26 متهمون) والجناح العسكرى للجماعة الاسلامية (60 - 70 متهمون)، الشرق الاوسط، 17/10/2001.

144 انظر مثلا: ضياء رشوان: نظرة للمستقبل: الظاهرة الاسلامية كنموذج، الاهرام، 1/2/2002؛ منتصر الزيات: مستقبل الاخوان المسلمين، الحياة، 18/2/2002. حتى النظام نفسه متهم بانه وراء استخدام الجماعات الاسلامية (باطلاق سراح زعمائها من السجون) ضد جماعة الاخوان المسلمين. للاطلاع على اعلانهم انتهاء استخدام العنف من بعض قيادات الجماعة، انظر الاهرام، 2/3/2002. للاطلاع على النقد الذاتى لهم انظر مفاهيم المراجعات (اربعة كتب).

145 انظر جدالنا من اجل ضم الاسلاميين فى ديموقراطية اوسع فى كتاب (تأليف د. احمد عبيدالله): الجامع والجماعة... نقد الاسلاميين والمتقنين فى مصر، الطبعة الثانية، دار الكلمة، القاهرة، 2002.

146 ما عدا المستقلين الذين شكلوا المجموعة الاكبر بعد الحزب الحاكم.

الدلتا في اوائل 2003)<sup>147</sup> باستخدام قوى الضغط والترويع لايقاف الاخوان المسلمين<sup>148</sup>. هذا يبرر بشدة فرضية بان ما نراه في مصر مبارك هو: اكثر من رد فعل على الاسلاميين. انه نزع الليبرالية السياسي عن مصر التسعينات.<sup>149</sup> بنزع الليبرالية من النظام السياسي تحت رايات مكافحة التطرف الاسلامي/والارهاب دبر نظام مبارك ضمان رضا النخبة العلمانية بشكل واسع وقبولها بنظامه، تلك النخبة التي تخشى من افاق دولة اسلامية تنكر عليهم هذه الدولة حرياتهم الشخصية وطريقة حياتهم العصرية. وما هو اكثر اثاره للدهشة هو هذا الاتجاه العلماني للنخبة داخل المعارضة، والذي يشارك جمهوره مخاوفهم. انها تعيش بمشاعر منافسة خاصة مع الاسلاميين. اصوات علمانية قليلة وقفت بحسم ضد القمع غير الليبرالي سعيد النجار او اليساري نبيل الهلالي او بعض منظمات حقوق الانسان. تركت احزاب المعارضة للحكومة مهمة فرز الاسلاميين. في تلك العملية، تقهقروا بمكانتهم في النظام السياسي وفقدوا مصداقيتهم امام جمهورهم المفترض. العديد من المواطنين في مصر لا يفكرون في، ولا يلاحظون اي معارضة اخرى سوى معارضة الاسلاميين<sup>150</sup>. هذه الحالة الفكرية زادت من ضعف احزاب المعارضة وتركت الساحة خالية لاحتكار مستقل للحزب الحاكم. النظام لا يستشعر اي ضغوط تدفعه للإصلاح واشاعة الديمقراطية. النخبة المعارضة التي عينت نفسها صاغت اجماعا احتفظ موضوعيا بحرية النخبة الحاكمة في القيام بعملها بنفس الطريقة القديمة. عناصر المعارضة تلك رغم نداءاتهم المتكررة من اجل الاصلاح ظلت تمثل صوتا فقط ولكنها لم تمثل ضغطا يمكن ان يعطى له اعتبار. في النهاية دبر النظام حتى تعيين بعض من اكثر الاصوات انتقادا في ادوار اخرى.<sup>151</sup> كان العامل الاسلامي حاسما في حدوث كل ما جاء باعلاه. حافظ على استمرار الوضع الراهن، والاصلاح الممزق الاوصال، والقمع المبرر للاسلاميين والآخرين بجانب التسبب في مزيد من الانتكاس للديموقراطية المحدودة حتى الان.

---

147 انظر: حكم المحكمة في احداث شغب دائرة الرمل بالاسكندرية، الاهرام، 23/10/2002؛ جمال عصام الدين: اوقات عصيبة لحشمت، الاهرام ويكلي، 19/12/2002.

148 عصام الحملاوي: نداء الاخوان المسلمين من اجل المصالحة ينزل على اذان صماء، كايرو تايمز، 28/11/2002. عن عدم انخراط الاخوان المسلمين في العنف ارجع الى اعتراف النائب العام العسكري بذلك: الحياة، 30/1/2002.

149 هذا عن حق عنوان دراسة ابرهارة كيانل في ميدل ايست جورنال، مجلد 52، رقم 2، ربيع 1998. انظر محاورته مكتملة بشكل اكبر في كتابه: وهم عظيم: الاصلاح السياسي والاقتصادي في مصر، أي بي تاوريس، لندن، 2001.

150 انظر الاحزاب السياسية... من الميلاد المتعسر الى التهميش، تقرير دراسات عربية 2001، الاهرام، القاهرة، 2002.

151 الموضوع الدال على ذلك هو رفعت السعيد (السكرتير العام لحزب التجمع اليساري) الذي عين بواسطة الرئيس عضوا في مجلس الشورى. ظل رفعت السعيد ناقدا ولكن بلهجة مخففة. والحالة ذات المغزى الاكبر هي تلك الخاصة بالصحفي اليساري البارز صلاح عيسى الذي كان ناقدا عالي الصوت للنظام وله كتابات بليغة متعددة في نقد الاصلاحات السياسية والدستورية. قبل صلاح عيسى بتعيينه رئيسا لتحرير جريدة القاهرة الاسبوعية لسان حال وزارة الثقافة (وزيرها ظل في منصبه لاكثر من 15 عاما متصلة وحتى الان). بينما ظل صلاح عيسى ناقدا للنظام فهو يركز الان في كتاباته على القضايا الثقافية. انظر مثلا مقالاته النقدية في صحيفة الوفد عام 1999: متى يصبح المصريون مواطنون وليسوا رعايا؟ (1/7)؛ الجمهورية البرلمانية هي الحل (8/7)؛ حسان الديمقراطية وعربة المعارضة (15/7)؛ مراجعة نظام المبايعة (22/7).

في الحالة الحالية هذا العامل كان من الممكن اتساع تأثيره بشكل اشمل. في داخل وخارج الحدود القومية لمصر توجد نزعة ضخمة معادية للامريكيين داخل صفوف الاسلاميين. حتى العلمانيون المناهضون لامريكا في العالم الاسلامي يتبعون خطا شبه اسلامي عندما يأتون لقضايا مثل فلسطين والعراق. ليس من المرجح ان يختفي هذا العامل الاسلامي<sup>152</sup>. حتى ولو نجحت الولايات المتحدة في تسوية مثل هذه القضايا، ربما يتحوصل هذا التيار. وهنا يظل السؤال بلا اجابة، ما الذي سوف تفعله امريكا مع هؤلاء الاسلاميين، غير اصطياد بن لادن وشبكته؟ اذا ما ظهرت اجابة، هناك اسلاميون اخرون في الخارج. حتى تواجه امريكا التيار الاسلامي او تعين له دورا اخر؛ يجب ان تفعل ذلك بواسطة وكلاء لها، اي من خلال انظمة الحكم في العالم الاسلامي. هل سوف تدعم امريكا عملية التحويل الديمقراطي لتلك الانظمة مع المخاطرة بمشاركة الاسلاميين (المناهضين للامريكان) في السلطة (نموذج مشرف في باكستان)؟ او هل سوف تدفع الولايات المتحدة الانظمة الحاكمة نحو مزيد من القمع والانتكاس من اجل متطلبات الحرب على الارهاب؟ على اية حال، عندما نتكلم عن محتوى الانظمة وشكلها مثل ذلك النظام في مصر وافاق تحوله الديمقراطي، يجب ان يكون كلامنا بشكل اولي عن وجود عاملا امريكيا في المعادلة، ايضا.

خلال فترة قصيرة بعد كارثة 11 سبتمبر، كان الهم الامريكي اشبه بمن يبحث بشكل احادي النظرة عن الارهابيين فقط لدرجة تدفع لاعادة انتاج هذه المأساة مرات اخرى. من هنا تقاطعت الجهود المتضاربة لهذين العاملين: الامريكان والاسلاميون - نموذج مؤثر للدباليكتيك الهيجلي!

يحتاج الرأي الامريكي الاحادي النظرة لان يتحدث حتى يصبح رؤية بعينين، حتى تستطيع الولايات المتحدة ان ترى شيئا اخر له اهميته: الحركة المناهضة للعولمة التي ليست هي بحركة اسلامية. في الواقع، كانت مشاركة الاسلاميين فيها ضعيفة بالكاد، ان لم تكن لهم فيها مشاركة على الاطلاق. رغم ذلك، عند نقطة معينة قد يشارك الاسلاميون بها. ولسوف يتصادف ذلك مع عودة ظهور الحركات الاجتماعية لمخاطبة مشاكل الفقر، وحقوق العمال، والعدالة الاجتماعية الخ.<sup>153</sup> سوف يحاول الاسلاميون تولي القيادة في تلك الحركات. وهكذا، سوف تتواجد الارض الموضوعية لتحالف اعرض مناهض للامريكان/ومناهض للعولمة على كل من المستويات القومية والدولية. سوف تود الانظمة القومية في البلاد الاسلامية وما وراءها ان ترى اعادة شق قنوات السخط في تلك القاطرة العظيمة المكتشفة حديثا. فهي سوف تغطي فشلها في ادارة شئون الداخل والاقتصاد بالقاء اللوم في كل شيء على العولمة. ولسوف يكونون الان ديموقراطيين ايضا لدرجة انهم سوف يسمحون للاصوات المناهضة للعولمة بان تعبر عن نفسها بحرية بينما يخرسون باقي الاصوات في القضايا الاخرى.

152 ضياء رشوان ومنتصر الزيات، المرجع السابق. هذا رغم النقد القاسي الذي يتعرض له الاسلاميون على اختلاف تنوعاتهم من المعتدلين منهم للمتطرفين. انظر مثلا نبيل زكي: دعوة لتمزيق الامة واشعال الطائفية، الاهالي، 12/12/2002؛ احمد ثابت: شيوخ الحسبة في مصر، العربي، 19/8/2001، نبيل الميهي: جرائم وهزائم الاخوان المسلمون، روزا اليوسف، 26/1/2002.

153 انظر مثلا مجادلات قانون العمل الجديد ومظاهرة بعض الناشطين العماليين، التي ادانتها النقابات العمالية الرسمية، امام البرلمان في 13 يناير 2003 (بيان مركز خدمات النقابات العمالية، 21/1/2003).



وهكذا سوف تبقى الانظمة القمعية على قيد الحياة، وتقتات على الديمقراطية وتسحقها. يتعجب المرء كيف يستطيع الامريكيون كسر مثل هذه السلسلة باي ادوات هم يمتلكونها من اجل فرض ارادتهم وطريقتهم على باقي الكوكب. النظام المصري، كمشارك في الحرب على الارهاب، لا يواجه الا قليلا مخاطر في هذا السياق بينما يستفيد منه اعظم استفادة. سوف يكون الاصلاح الذي يقوم به ضئيلا.. وجموده إن لم يكن انتكاسا بالمزيد، سوف يكون عظيما.

## التصحيح واعادة الهيكلة

تمتعت مصر بحمل استمر حرفيا تسعة اشهر من المقدمات للديموقراطية استمر من ابريل 1976 حتى يناير 1977. اي، بين العودة الرسمية لنظام متعدد الاحزاب واحداث الشغب من اجل الطعام في 18/19 يناير 1977. منذ ذلك الحين واخذ المنحنى في الهبوط. وقد اتخذ خطأ هابطا بحدة طوال عقد التسعينات كاملا. طوال هذا المسار، تلقى المصريون ثلاث ضربات سيكولوجية قاتلة جعلت من الديمقراطية بابا اضافيا في ابواب قاموس النكت المصرية الواسع:

- عندما اخبرهم نظام السادات ان النظام المتعدد الاحزاب لا يعني تداول الحكومة بين الاحزاب المختلفة، حيث سيكون، كما في السابق، هناك حزبا واحدا بشكل دائم هو الحزب الحاكم.
  - عندما نقل لهم مبارك رسالة ان المصالحة المبكرة مع المعارضة كانت لحظية ومؤقتة حتى يستفيق النظام من صدمة اغتيال الرئيس السادات. مبارك قال انه سوف يكون رئيسا لفترة رئاسية واحدة فقط (? سنوات). ولكنه ما زال هنا بعد ?? سنة.
  - عندما نقل مبارك، مرة اخرى، رسالته الثانية بان الاشراف القضائي على الانتخابات عام 2000 لا يعني جوهريا نتائج انتخابية مختلفة او تغيير الحزب الحاكم او تغيير اي قواعد من قواعد اللعبة القديمة.
- كانت الاستجابة على تلك الرسائل الواضحة، هي قرار الشعب المصري مغادرة السياسة وتركها للسياسيين والذهاب الى بيوتهم. انكشيت المشاركة (مثلا، فقط 10% من الاصوات الانتخابية في القاهرة والاسكندرية هي التي تهتم بتحمل مشقة الذهاب للتصويت في الانتخابات). الوجود في الحكم او في المعارضة اصبح امتيازا يمنح لنخبة ضيقة. ضيقت النخبة الحاكمة المساحة اكثر امام النخبة المعارضة. المعارضة الراديكالية، مثل اليساريين في السبعينات والاسلاميين في الفترة بين اواخر السبعينات والان، تعرضوا لمعانة القمع الصريح. المعارضة المرتعدة اكثر واجهت نسقا عملياتيا اخر: قل واكتب ما تريد... ولكننا سوف نستمر في فعل ما نريد ان نفعله. عبر عقدين من الزمان من الركود والانتكاس المنهجي، فقدت النخبة المعارضة الامل. انه اليأس وقلة الحيلة ومشاعر اللاجدوى التي اسست الآليات الاساسية لحكم مبارك: سيكولوجيا اكثر منها ايديولوجيا.

انقلبت النخبة اليائسة على نفسها. ذهب صوت انتقاداتها وحججها للدفاع عن الاصلاح ادراج الرياح، وتركت لاعادة انتاج نفسها. بعض المفكرين والسياسيين يكتبون المقالات والتقارير التي كانت هي هي نفسها التي كتبت منذ عشرين

سنة<sup>154</sup>. لم يتغير شيء سوى مرور الزمن وشيخوختهم، وبالأخص شيخوخة الروح. هذا الاستساخ والنسخ الكربونية لم يستخرج شيئاً أصيلاً من النخبة المعتلة. حدث فقط تغييراً في الشكل. عناصر النخبة المعارضة في مصر، بدلاً من الوقوف موحدين من أجل تغيير إطار عملهم نفسه بنظرته الاحادية وقواعده العتيقة، سقطوا في خلافات مع بعضهم البعض وانخرطوا في تناحر أخوي قاتل. واخذوا يصيحون في وجه بعضهم البعض في تلك المساحة الضيقة التي سمح لهم بالعمل فيها<sup>155</sup>. وكانت تلك نعمة أرسلتها السماء لاسعاد النخبة الحاكمة التي لم تشعر إلا بالقليل من الضغوط المنظمة التي تدفعها في طريق الإصلاح.

في مثل هذا السياق ساعدت بعض تدابير تصحيحية متواضعة النظام من أجل البقاء. فقد خلع النظام وزير داخلية ضبطته صحافة المعارضة متلبساً باستخدام لغة نابية في الحوار. كما أرسل نظام الحكم إلى بعض ضباط البوليس المحكمة لاتهامهم باستخدام التعذيب. وأرسل أيضاً ببعض الموظفين الكبار إلى المحاكم بتهمة الفساد. بل قام النظام بإجراء انتخابات جديدة تحت طلب المعارضة، أو بسبب طارئ سياسي كما صرح مبارك بذلك في وقته (بعد مؤتمر المعارضة الواسع الأخير الذي أقيم في الخامس من فبراير 1987). نعم لكل ذلك. ولكن ما ليس بنعم، هكذا يخبرنا النظام:

- تغيير الدستور<sup>156</sup>.
- انتخاب رئيس الجمهورية في انتخابات متعددة المرشحين (بدلاً من الاستفتاء على مرشح واحد).
- تداول السلطة بين الأحزاب السياسية، أو على الأقل مشاركتهم في حكومات ائتلافية.
- تقنين وضع الإخوان المسلمين والمنظمات الإسلامية الأخرى التي لا تستخدم العنف (على الأقل بشكل يضع اعتباراً للمصلحة العملية لوقف الاستقطاب المستمر بينهم وبين الدولة).

---

154 بل إن البعض منهم قد توقف عن الكتابة تماماً. مثل حالة الاستاذ الجامعي استاذ التربية والتعليم سيد اسماعيل علي الذي كتب مقالات شجاعة في السبعينات والثمانينات منتقداً فيها محرقات مثل المؤسسة العسكرية.

155 على سبيل المثال اللغة النارية المستخدمة في الخطاب بين محمد سيد احمد ووحيد عبد المجيد (كلاهما من الاهرام) حول محتوى التقرير الاستراتيجي العربي الذي اصدره الاهرام نفسه (انظر مثلاً: رشدي ابو الحسن: حرب معارضة تقرير ووحيد عبد المجيد، صباح الخير، 4/4/2000). عن المشاحنات ونقص الحوار الموضوعي فيما بين النخبة عموماً انظر: جمال عبد الجواد: أزمة الحوار العام... أو أزمة المناخ العام، الاهرام، 27/3/2000؛ عبد المنعم سعيد: السويس... مونترال المتغيرات وأشياء أخرى، الاهرام، 4/6/2001. انظر أيضاً مقالة مبكرة لعصام العريان من الإخوان المسلمين: الاطار الصحيح للحوار بين القوى السياسية، الاهالي، 31/7/1991. أيضاً، احمد عبدالله، وجورج عجايبي (مع حفظ الالقاب): الحوار الوطني، اللجنة المصرية للعدالة والسلام، القاهرة، 1994؛ نهى المكاوي: بناء الاجماع في المرحلة الانتقالية بمصر، مطبعة الجامعة الاميريكية في القاهرة، 1999.

156 بدأت حملة لتغيير الدستور قامت بها احزاب المعارضة في 1991 (وتم صدها بقسوة في مقالة افتتاحية بجريدة الاهرام الرسمية). انظر مثلاً في الوفد في 1991: عثمان حسين... الدستور... حتى متى؟ (26/3) وفي شهر يوليو وحده انظر كتابات ثروت بدوي (11/7)، محمد فهميم (13/7)، احمد ابو الفتح (25/7)، عبد العزيز محمد (25/7)، وعلي سلامة - كل الشخصيات البارزة في المعارضة. في الشعب انظر: حلمي مراد: كتاب السلطان يستبقون الرئيس في نهر المعارضة عن المطالبة بتغيير الدستور (16/7)؛ مدحت ابو الفضل: لماذا نخشى من تغيير الدستور؟ (30/7). في نفس الوقت وضع الاسلاميون مسودة دستور مقترح والذي اثار جدالاً اخر.

- ضمان الحياد والادارة الذاتية لوسائل الاعلام.
  - السماح بالادارة القضائية الكاملة لعملية الانتخابات (وليس اشرفا جزئيا مثل الذي حدث في انتخابات 2000).
  - اعادة بناء نخبة السلطة، بالاحتفاظ بالجيش في ثكناته والسماح لنخبة مدنية بان تتعلم الحكم (بما فيها انتخاب المحافظين في المحافظات الذين يأتي معظمهم بالتعيين من رجال الجيش).
- بالنسبة للنظام المسئول في مصر تلك هي الاعمدة السبعة للجنون<sup>157</sup>. انها ليست فقط تدابير تصحيح ولكنها عملية كاملة من اعادة البناء واعادة التشكيل. انها تدابير تنفذ من السقوف ولو تم تطبيقها فهي تعرض النظام نفسه للخطر. فعلا، تلك هي القضية. انها طريقة للمطالبة بنظام اخر في مصر. ولكن تلك قضية تعتمد على الضغوط الداخلية والخارجية<sup>158</sup>. طالما ترك الموضوع للنخبة الحاكمة نفسها لتقرر مدى التغيير، سوف يظل التغيير داخل حدود التصحيح وترفض بشراسة اعادة التشكيل. لمدة عقد قادم، سمسرة السلطة من النخبة الحاكمة، خصوصا ولولهم الرئيس، قد قرروا فعلا الاجندة. وهي، لا نمطية للاربعه الاوائل من النقاط السبعة، لكن مع بعض المقايضة والمساومة في النقاط الثلاث الاخيرة:

- لا... لتغيير الدستور<sup>159</sup>
- لا... لانتخاب الرئيس
- لا... لا لتداول السلطة
- لا... لحزب اسلامي

دون الحديث عن تلك التغييرات الكبرى، التحدث عن اصلاح محدد في مصر هو مبالغة ان لم يكن مغالطة وتدلّيس. ومع ذلك، استعداد النظام للمساومة حول الثلاث نقاط الاخرى يمكن اعتباره علامة تحسن في اداء النظام<sup>160</sup>. ولا، نتيجة لاثر وسائل الاعلام الفضائية، ببرامج التوك شو فيها وانتقادها للانظمة العربية، جهاز الاعلام، تحت قيادة

157 للاطلاع على صياغات بمقترحات الاصلاح انظر مثلا المقالة السالف ذكرها لصلاح عيسى عن الجمهورية البرلمانية. انظر ايضا حملة الوفد تحت عنوان الوفد يفتح ملف الاصلاح السياسي (سلسة من 13 حتى 20 /1999).

158 من الجدير بالذكر هنا محاضرة الصحفي الشهير محمد حسنين هيكل في الجامعة الامريكية (النص في جريدة العربي، 20/1/2002). في هذه المقالة يعارض الكاتب استمرار الوضع الراهن وسط العواصف الاقليمية والدولية، ومحذرا من تآكل شرعية نظام الحكم ويدافع عن اصلاح جوهري وفوري.

159 في ذروة اخر صدام مع الارهاب دعت الحكومة الى حوار وطني مع احزاب المعارضة. في هذا السياق، تم التعبير عن بعض اراء حول تغيير الدستور. في التمهيد لذلك، ناقش ابراهيم نافع هذه القضية (بشكل اكثر رزانة هذه المرة) مع انصار التغيير الدستوري. انظر مقالته الافتتاحية باسم الحوار حول الاجماع الوطني.. تعديل الدستور وانتخاب الرئيس (الاهرام، 26/11/1993). انظر ايضا: نبيل عبد الفتاح: من يخاف من تغيير الدستور؟، الاهرام العربي، رقم 137، 6/11/1999.

160 تحسن اداء النظام يعني في جوهره المقالات والدراسات الرشيدة في الاهرام، تحت شعار مركزه للدراسات الاستراتيجية والسياسية. وبشكل ملحوظ مقالات عبد المنعم سعيد، محمد السيد سعيد، نبيل عبد الفتاح، جمال عبد الجواد، ضياء رشوان، وحيد عبد المجيد، واخرون، كتبوا عن القضايا السياسية الوطنية. انظر مثلا سلسلتان لهذا المركز: تطوير الممارسة السياسية (يناير 2001) واصلاح النظام الانتخابي (ديسمبر 2002).

صفوت الشريف نفسه، جعل بشكل ما الحوار السياسي من خلاله أكثر حرية. لكن هذه الحرية ما زالت تحت سقف معين<sup>161</sup>. بالمعيار المصري هذا تغيير يذكرهم بالتغيير اللحظي الذي تم في 1976 (الجدالات السياسية التلفزيونية التي كان يقدمها المرحوم جمال العطيبي، والتي توقفت فجأة)<sup>162</sup>. انها تعري بعض امراض النظام ولكن يظل انها تخدمه بتنقيس التوترات وتبرهن على ديموقراطية النظام من هذا الجانب على الاقل.

ثانيا، هناك اشراف قضائي على الانتخابات، اي القضاء يضعون ايديهم على صناديق التذاكر الانتخابية داخل مراكز الاقتراع ويقومون بفرز الاصوات ويعلنون النتائج بانفسهم<sup>163</sup>. طبق ذلك في انتخابات من ثلاث جولات عام 2000 بعد حكم المحكمة الدستورية العليا في هذا الخصوص. تتباهى الحكومة بتنفيذ الانتخابات تحت اشراف كامل من القضاة. في الحقيقة، انه اشراف جزئي. ليس امام القضاة شيئا يفعلونه في تحضير القوائم الانتخابية، التي تضعها كما في السابق وزارة الداخلية. تلك القوائم تحتوي على اخطاء بدرجة تمنع بعض الناخبين من الادلاء باصواتهم مما يؤثر على نتائج الانتخاب<sup>164</sup>. ايضا، ليس امام القضاة شيئا يفعلونه فيما يحدث في الفناء الخارجي والشوارع المحيطة بمقار الاقتراع حيث يضرب الناخبون المحسوبين علي المعارضة ويمنعون من الوصول الى داخل مراكز الاقتراع. ومع ذلك، بالمعايير المصرية، ادى هذا الى تغيير مختلف اثر على نتائج الجولة الاولى من الانتخابات: هزيمة مدوية للحزب الحاكم. تم تدارك الامر بواسطة جهاز الدولة، خصوصا اجهزة الشرطة، في المراحل التالية. في العد النهائي، حصل الحزب الحاكم على 38% من الاصوات. ولكن، في ليلة وضحاها، اصبحت النتيجة 88% عندما كسب المستقلون اقلية واسعة من الاصوات وانضموا او اعيد ضمهم الى الحزب الوطني الديموقراطي. كان يمكن لهم ان يشكلوا حكومة اقلية برلمانية، او يصبحون شركاء في ائتلاف حاكم او على الاقل معارضة لحكومة اقلية يشكلها الحزب الوطني الديموقراطي. رغم ذلك اختار المستقلون ان يحافظوا على استمرار حكم الحزب الواحد. لم يكن بين ايدي القضاة شيئا يفعلونه امام هذه النتائج النهائية. والشعب المصري لم يكن بين يديه ما يفعله ازاء ذلك. كهيئة ناخبين، ورغم كل العصي والجزر، اعطوا المرشحين الرسميين للحزب الحاكم 38% فقط من اصواتهم. المجرم الجاني هو نظام يرغم البلاد على طلاق النظام الجماعي التعددي منذ نصف قرن مضى.

ثالثا، النخبة الحاكمة، عموما، تبدو انها تساو، مع نفسها هذه المرة، وليس مع الرأي العام فيما فيما يتعلق بوسائل الاعلام او مع القضاة فيما يتعلق بالانتخابات، تقايض نفسها حول توسيع نخبة الحزب الحاكم وتجديدها. وهذا، لو

161 ملاحظة شخصية: عندما كانوا يدعونني الى توك شو تلفزيوني كان المذيع ينهني بانني يجب ان التزم بعدم المس بالرئاسة.

162 شاع في البلاد وقتها ان الرئيس السادات قال للدكتور العطيبي: دا مش البي بي سي! في الوقت الحاضر مؤسسة الاعلام تلجأ لبعض الاكاديميين من اجل اعداد وتقديم بعض البرامج التلفزيونية. مثلا عبد المنعم سعيد وطه عبد العليم من مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية بالاهرام.

163 عن الاشراف القضائي على الانتخابات انظر: التقرير العربي الاستراتيجي 2001، الاهرام، 2002، ص ص 426 - 433.

164 انظر: هالة مصطفى واخرون: انتخابات 2000، مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية بالاهرام، القاهرة، 2001.

حدث كعملية وليس كمجرد حدث، وهو عقد مؤتمر الحزب الوطني الديمقراطي في خريف 2002،<sup>165</sup> سوف يؤثر ذلك على موقف الحزب امام جمهور الناخبين والرأي العام. سوف يتضمن ذلك ايضا ادماج مزيد من المدنيين الشباب من جيل طبقة الاعمال وادارة البنس تلك الطبقة التي يزداد عددها، وهنا يحاول جمال مبارك حمل قضيتهم. سوف يؤثر ذلك بشكل ما على السمة الاساسية للنظام وجهازه الحاكم: عسكريين في الجيش وفي المناصب المدنية الهامة، والتكنوقراط في الوزارة، والبيروقراط (الموظفين) في المؤسسات التنفيذية وفي الحزب الحاكم نفسه، تركيبة من كل هؤلاء اضافة الى الاعيان المحليين والعصبيات المحلية ممثلة في البرلمان. شريحة من السياسيين المدنيين قد تظهر بشكل اكثر وضوحا خلال تلك العملية.

رغم ذلك، يقلل عاملان مشتتان من مغزى تلك التغييرات التي حدثت في مؤتمر الحزب الوطني في نهاية عام 2002. تغيير القيادات كانت تحت مستوى القمة. كل المعلمين الكبار الذين هيمنوا على الحزب تقريبا منذ نشأته بقوا في مناصبهم. ترقية صفوت الشريف على الاخص، مع خلفيته العسكرية من المحتمل انه قد تم ترتيبها لتهدئة غضب المؤسسة العسكرية باظهار ان البناء الاساسي للسلطة الحقيقية سوف يظل مصونا لا يمس. تصعيد جمال مبارك، ايضا، له مدلولات وراثية.

مع التسليم بكل النجاح الذي تحقق في تجديد الحزب الحاكم، ذلك لا يرقى الى انه نجاح في تجديد النظام. انه في احسن الاحوال حزبا افضل في نفس النظام<sup>166</sup>.

سوف يقدم البعض حججا بان تحسين اداء الحزب الحاكم سوف يؤثر على الاحزاب الاخرى والنظام ككل. مبدأيا تلك الحجج تستخدم المنطق. ولكن، عمليا، هذه الحجج قد تساعد على استفحال احتكار الحزب الواحد مع التسليم بالحالة المرضية التي تعانيها الاحزاب الاخرى باستثناء الاسلاميين (وهم للمفارقة ليسوا حزبا شرعيا). ايضا، قد تقود التحسينات تحت نفس الشعار الواهم الى اصلاح. تظل النخبة الحاكمة رافضة لاغواء عدم تغيير المحرمات الاربع المقدسة التي ذكرناها اعلاه. سوف يستمر الحزب الوطني الديمقراطي في العمل تحت هذا السقف. عليه ان يبقى حزب المحرمات الاربع المقدسة. وفي اتجاه معاكس، هل سوف يتصدى الحزب الوطني الديمقراطي لقيادة قضية الاصلاح بهذه الطريقة:

- الدفاع الحماسي عن دستور جديد؟
- تبني قضية انتخاب الرئيس (هل سوف يقف جمال ام رجل جيش اخر بين المرشحين؟)؟
- بتسليم السلطة لحزب اخر او ان يكون شريكا في ائتلاف حكومي؟

---

165 انظر جمال زهران: انتخابات في الحزب الوطني الديمقراطي: تجربة جديدة، الديمقراطية (المجلة الفصلية الصادرة عن الاهرام، رقم 8، خريف 2002، ص 169 - 174).

166 ثارت شائعات في البلاد حول تأسيس حزبا جديدا (حزب المستقبل) يقوده جمال مبارك (انظر: وحيد عبد المجيد: حزب المستقبل او منظمة شباب، الوفاء، 27/7/1999). وتوجد شائعات اكبر عن انقسام الحزب الوطني الى حزبين.

○ تأييد الاعتراف القانوني بحزب اسلامي (منافسه الحقيقي في اي انتخابات نظيفة؛ هل سوف يضمن الحزب الوطني بشكل واضح وصريح نظافة الانتخابات حتى لو خسرها)؟

يبدو هذا مثل احلام النهار في السياق المصري. بالنسبة للبعض ما زال هذا الاحتمال قائماً، رغم انه احتمال بعيد ويشبه المعجزة (رغم كل شيء الحزب الشيوعي الصيني على وشك ان يكون الحزب الرأسمالي الصيني!). ولكن في الوقت الحالي دعنا نضع الامور بطريقة سليمة. في مصر نحن نتكلم عن تصحيح وتحسينات.. وليس عن اعادة بناء واعداد تشكيل.

## الخلافة واعتلاء السلطة

الشعب المصري، احفاد من كانوا روادا للحضارة البشرية لمدة نحو سبعة الاف سنة مضت، تمتعوا بانتخاب حكامهم لمدة سبع سنوات فقط خلال تلك الالفيات. ربما استسلموا (بالتصويت في الاستفتاءات) لبعض حكامهم او حتى احببهم (بالمظاهرات وفي الجنازات). ولكن ذلك حدث من الخلف، بعد ان تبوأ هؤلاء الحكام السلطة فعلا. لم ينتخبهم المصريون قبلا، ما عدا تلك السنوات السبع الاستثنائية (المجموع الكلي لعدد من الحكومات قصيرة المدى التي شكلها حزب الوفد بعد انتخابات نظيفة بشكل استثنائي في الفترة الليبرالية من 1924 حتى 1952). من الفراعنة الى الاباطرة (اليونانيين والرومان) الى الولاة (مبعوثي الخليفة الاسلامي) الى الخلفاء (الفاطميين اثناء وجودهم المباشر في القاهرة التي انشأوها عام 969 بعد الميلاد) الى السلاطين (الايوبيين الى المماليك) الى الولاة الجدد (الذين ارسلهم السلاطين العثمانيين) الى الخديويين والسلاطين (حكام مصر المستقلة ذاتيا تحت الوصاية التركية) الى الملوك (في مصر المستقلة في القرن العشرين) الى الرؤساء (نجيب - ناصر - السادات - مبارك: الضباط /الرؤساء الاربعة حتى اليوم)، انها نفس القصة الطويلة على خط مستقيم لرؤوس دولة غير منتخبين بشكل حصري (اضافة الى رؤساء وزارة ايضا غير منتخبين تقريبا). هل سوف ينتخب المصريون رئيسهم لاول مرة في تاريخهم في هذا الوقت المبكر من القرن الواحد وعشرين؟ او هل سوف يؤجل ذلك الى مرحلة لاحقة في هذا القرن؟ او انه سيظل محفورا بتقليد استمر لالاف السنين؟

لا حاجة للتكهنات هنا. وحيث ان قلة داخل وخارج مصر هي المعنية بسؤال: كيف؟ ولكن كل شخص متشوق لمعرفة: من؟ وربما البعض لديه ترف ان يسأل: لماذا؟

تلك الاسئلة يمكن اجابتها بشكل تحليلي اكثر من حلها بضرب من ضروب التخمينات.

بالنسبة لسؤال "كيف يحصل المصريون على رأس لدولتهم" ستكون الاجابة جاهزة لا تحتاج الى سؤال.

انهم لا ينتخبونه (او لا ينتخبونها!) كما فعلوا ويفعلون (!؟) طوال المنحنيات البيانية الصاعدة والهابطة التي ترسم

تاريخهم الطويل تلك التي ذكرناها اعلاه. انهم يرضخون لمرشح اغلبية الثلثان البرلمانية مع استفتاء عليه بلا او نعم.

لهذا الحد، هم لم يقولوا ابدا لا (دع جانبا الحصيلة الحقيقية لمن ذهب الى مراكز الاقتراع). لذا، ما سوف يحدث في

المرحلة القادمة سوف يكون اعادة انتاج للمراسم الاحتفالية قبل وبعد الاستفتاء. ثم، سوف تجري طقوس التمجيد الروتينية

للرابح، كائنا من كان، في وسائل الاعلام (ان لم يكن بطلا آخر في حرب اكتوبر، عليهم ان يصنعوا منه بطلا لشيء اخر: بطلا للشباب مثلا). مقالات الصحف التي تمجد القادم الجديد ربما يجهزها الصحفيون الاوفياء مسبقا، في الوقت الضائع تاركين اسم القادم الجديد فارغا ليمأوّه به بعد ان يأتي. هذا الكلام ليس جلدًا للذات ... انه قراءة من التجارب السابقة.

وحيث ان الرئيس مبارك لم يعين له نائبا لمدة 22 سنة، سؤال من اذا سوف يكون الرئيس يطرحه الناس في تشوق شديد لمعرفة الاجابة. سؤال لماذا شخصا ما بعينه هو سؤال تابع مباشرة لسؤال من؟، حتى يعرفون اسمه وخلفيته والسلطة الحقيقية التي انتت به لمنصب القمة. للاجابة على هذين السؤالين المنسوجين معا دعنا نراجع بعض فصول المسرحية.

**موضوعيا**، هناك اربعة اطراف فيما يتعلق بقضية خلافة واعتلاء سلطة الرئاسة في مصر: ثلاثة لاعبين ومتفرج واحد. انهم يأتون بالترتيب التالي:

- الرئيس مبارك نفسه، على نحو خاص، والنخبة الحاكمة حوله، عموما.
  - المؤسسة العسكرية، على الاخص - كونها قلب النخب الحاكمة.
  - الولايات المتحدة - كونها القوة العظمى الوحيدة ذات المصالح المشتبكة في مصر، خصوصا في ظل حربها الحالية على الارهاب (وبدرجة اقل لاعبين دوليين اخرين مثل الاتحاد الاوروبي و، بدرجة اوسع مرة اخرى، القوى الاقليمية واسرائيل في المقدمة).
  - الشعب المصري: المتوج! (وهذا يتضمن نخبة المعارضة السياسية والفكرية، الذين يلعبون دور المعلقين).<sup>167</sup>
- وذاتيا**، هناك اربعة مرشحين: اثنان ممكنان واثنان محتملان. وهم يأتون في الترتيب التالي:
- الرئيس مبارك نفسه يظل في السلطة لفترة خامسة (ولا غرابة... للسلطة غوايتها القوية... مكث بورقيبة في السلطة بتونس وهو في الثمانينات رغم الشيخوخة واعتلال الصحة).
  - نائب رئيس جمهورية يعين في اخر لحظة (يجب ان يكون رجلا عسكريا في تلك الحالة. السادات لم يستطع تعيين مدنيا في هذا المنصب رغم انه كان قد بدأ في اختزال سلطة العسكريين في النظام السياسي؛ مبارك هو الذي اعاد ادخال تلك السمة العسكرية المميزة للنظام السياسي مرة اخرى).
  - بعد رحيل مبارك ودون نائب للرئيس: رجلا عسكريا تقترحه قيادة الجيش ويرتضي به البرلمان والحزب الحاكم وكل شخص اخر في النظام. من الممكن ان يكون: وزير الدفاع، او رئيس الاركان او احد قادة الاسلحة

---

167 انظر مثلا: انور عبد الملك: مصر وازمة النظام الجمهوري، الحياة، 27/4/2000؛ ابراهيم درويش: ولكن..من يأتي بعد مبارك؟، الوفد، 13/7/2000؛ على سعيد ونها البهنساوي: نائب الرئيس الغائب، العربي، 8/4/2001. نشر احد الشباب كتابا، اجرى فيه حوارا مع تسعة مثقفين وسياسيين من مختلف الاطياف، حول هذه القضية: محمد فخري: من يحكم مصر بعد مبارك؟، القاهرة، 2001. انظر ايضا تعليقاتنا حتى يتحقق الانسجام: مصر يجب ان تصبح اما ملكية دستورية (العربي، 18/6/2000) او ان تظل جمهورية رئيسها ينتخبه شعبه مباشرة في انتخابات بين مرشحين متعددين، على الاقل للاحتفاظ بالواجهة التي استطاعت ايران الاحتفاظ بها، أي، حتى ولو لم تكن على اساس مبدأ الامة واحترامها (معرض القاهرة الدولي للكتاب، يناير 2002).

الرئيسية في الجيش، خصوصا قائد سلاح الطيران. مع شمول القوات البحرية والاستخبارات. لو اختلف قواد الجيش بين انفسهم، سوف يفضلون في هذه الحالة المحافظة على وحدة الجيش بالاصرار على سياسي مدني له خلفية عسكرية. في تلك الحالة سوف يكون شخصية قيادية من الحزب الوطني الديمقراطي. هناك شخصيتان معروفتان تمتلكان تلك المؤهلات: صفوت الشريف، السكرتير العام للحزب الوطني الديمقراطي، وذكريا عزمي، السكرتير العام للرئاسة.

○ سياسي مدني صرف يرشحه الحزب الوطني مع موافقة ضمنية من الجيش. حرس الرئيس يجب ان يكونوا جزءا من هذا الاجماع ولكن دون الحق في منع مدني لأول مرة من دخول القصر الرئاسي. اجنحة الاستخبارات يجب ان تكون بشكل اولي حاضرة في هذا الاجماع وتقوم بادارة التفاعلات بين علاقاتها المدنية والعسكرية.

بفحص مزيد من الاحتمالات في الاحتمال الاخير لمدني يعتلي سدة الرئاسة لأول مرة في مصر، من الواضح ان اقوى المرشحين هو جمال مبارك نفسه. ولكن ذلك يجب ان يتم برضاء الجيش. اذا لم يكن مثل هذا الرضاء موجودا لن يتمكن جمال مبارك من اعتلاء الرئاسة، اذا لم يكن نائبا لرئيس عسكري. يوسع مبارك الافاق امام ابنه، ليس بمجرد تركه يرتفع سريعا في الحياة العامة وفي قيادة الحزب الحاكم، ولكن ايضا بعدم فرضه على الجيش. هذا هو المنطق وراء ترك منصب نائب الرئيس فارغا. ما زالت الرئاسة في مصر امتيازا للجيش او بقراره السيادي.

المشكلة امام التحليلات اننا لا نعرف ما يدور في عقول الشخصيات القيادية في الجيش، رغم اننا نعرف ونرى ما يفعله الرئيس مبارك وابنه. فجمال هو الرئيس بالامر الواقع توا بجوار والده المسن. ولكنه لا يستطيع ان يكون الرئيس الشرعي الا اذا كان الجيش يريد ذلك او يقبل به. بالنسبة للرئيس مبارك، فقد فعل ما بوسعه لتدريب ابنه وترقيته. وايضا افسح الطريق امامه بازالة منافسيه المدنيين مثل عمرو موسى صاحب الشعبية، والذي وضعه في المنصب المرموق كسكرتير عام جامعة الدول العربية، ولكنه المنصب البعيد عن نواة النخبة القائمة بالخدمة في السلطة.

بكلمة، ترك مبارك الباب مواربا في طريقين: بالنسبة لرفاق السلاح/ورفاق القشلاقات او بالنسبة لابنه الاصغر (قليلا ما يذكر الان الابن الاكبر الذي حصل على ترقيته في البنزس وليس في السياسة، وان كان بواسطة السياسة). يستطيع ان يفتح الباب على مصراعيه حتى نهاية الدقيقة الاخيرة في مدة رئاسته الاخيرة ويقرر لحظة مواتية ليسأل البرلمان عن تسمية مرشح جديد بينما هو ما يزال في الحكم. ربما تقريبا سوف يفعل كهنة المعبد ما يروونه بالطريقة السورية: يحركون اسرابا لترشيح ابنه. كيف سيبيع مبارك (قائد الطائرات القاذفة نو التدريب الروسي) هذه البضاعة ماركة يلتسن/بوتن المسجلة لكهنة المعبد الاخرين (الكهنة العسكريين)؟ مرة اخرى، المحللون لا يعرفون ماذا يدور في عقول السياسيين المتأمرين.

ما يهم مبارك في النهاية هو عدم تجريم حكمه بعد رحيله، بمعنى الاحتفاظ بالملفات مغلقة: العمولات، الصفقات المتبادلة، الفساد، التعذيب، التزوير الخ. يمكن ان يضمن ذلك بواسطة ابنه كخليفة للرئيس او كشريك في الحكم بعد



رحيل ابيه. ويمكن ان يؤمن ذلك ايضا بواسطة زميل سلاح كرئيس مع ضغط قليل بفتح الملفات. انها الوراثة على اي حالة.

لو كانت هناك حاجة لغطاء في اية حالة منهما من الممكن ان تكون الولايات المتحدة وتفضيلاتها هي الغطاء. كلا الطرفين في هذه الرواية المصرية لديهما كروت طيبة ليلعبوا بها مع الامريكيين: الجيش هو الضامن النهائي للاستقرار في مصر والمنطقة، وهو ما يريده الامريكيون... وجمال تم تسويقه بشكل حسن للامريكيين كمدني شاب متحمس من طبقة رجال الاعمال الحديثة برواها العولمية والبنزس الخاص به موجود في الولايات المتحدة نفسها. تركيبة من مزيج يتكون من كلاهما قد يكون الوصفة الامريكية المفضلة لمصر. ربما يقترح الامريكيين ايضا مدني مصري امريكي الجنسية مثل الدكتور احمد زويل، العالم البارز صاحب الشعبية الجماهيرية في البلاد بسبب حصوله على جائزة نوبل. لو، افتراضيا، اصر الامريكيون على الانتخابات الرئاسية مع ترشيح عدد من المرشحين فيها، ربما يتطلب هذا تعديلا دستوريا. سوف يشرف على هذه العملية رئيس مكلف بذلك. ربما يكون هذا الرئيس هو رئيس مجلس الشعب في منصب مندوب له كرئيس مؤقت. او ربما يأتي اتفاق من وراء الستار بشخصية اخرى كرئيس مؤقت لفترة قصيرة. تلك الشخصية سوف تكون سياسي كبير من الشيوخ. مثلا الدكتور مصطفى خليل (نائب رئيس الحزب الوطني السابق) او حتى الدكتور بطرس غالي (السكرتير العام السابق للامم المتحدة). لما لا؟ اليس الامر كله فرضيات في افتراضات! لا يهم من سيكون الرئيس القادم لمصر، ج الاول ام ج الثاني ام ج الثالث (جنرال او جمال او الجواد الرابع في السابق). او حتى ملاك، تظل الحقيقة هي ان نظام مصر السياسي هو نظام مريض ويتطلب وصفا موسعة وفعالة لشفائه قبل ان يفوت الاوان<sup>168</sup>، في غياب امة منذ ان اختزلها النظام السياسي الى مجرد متفرج يتلهى بالفرجة على مصيره، وغياب نخبة ديموقراطية عصرية بديلة، يبقى في مصر لاعبان اخيران اثنان غير النظام الذي يتلبسها: الاسلام او العم سام. المعركة الكوكبية بين هاتين القوتين ربما تطبع بطابعها السياسات الداخلية في مصر بسمات اكثر من الاسلامة والامركة. هذا الاستقطاب ربما يعطي النظام القائم، كوسيط في المنطقة الوسط، نفسا للبقاء على قيد الحياة. ولكن ذلك سوف يكون قرص الاسيرين لما بعد 11 سبتمبر ولكنه لن يشفي من المرض الاصيلي. على المدى الطويل، الطبيب الشافي يجب ان يكون الشعب المصري نفسه.

168 انظر القسم الخاص بفترة ما بعد مبارك في كتاب: ماي قاسم: تحت غطاء الديموقراطية. الحكم في مصر المعاصرة، لندن، ايثاكا، 1999، ص ص 178 -

## قضية الأجيال، تحدي الشباب المصري عبر قرنين

تأليف: د. احمد عبد الله رزة

عرض وتلخيص: احمد زكي احمد

صدر كتاب الدكتور احمد عبد الله، "قضية الأجيال" عام 2003، عن دار المحروسة وهو الكتاب قبل الأخير من سلسلة مؤلفاته التي أسهم بها في المطبعة العربية، وأعيد نشره دون موافقته في مكتبة الأسرة، عام 2005،

أما أن هذا الكتاب من كتب الدكتور احمد عبد الله يكتسب أهمية خاصة فهذا صحيح، لكن ليس لنقص الدراسات المثيلة في المكتبة العربية فقط، ولكن لأن هذا الكتاب يطرح قضية مصيرية وهامة تتعلق بمستقبل الأمة المصرية كلها وليس شبابها وحده. ففي أول سطر من تصدير الكاتب لكتابه يحدد القضية بأنها تتعلق بـ "صياغة مشروع مواجهة المستقبل خصوصا إذا كان المستقبل القريب يدق الأبواب بإلحاح مؤذنا بمنعطف متميز في التاريخ البشري..."

وفي نظر الكاتب تصبح مسئولية صياغة هذا المشروع مسئولية متعددة المستويات، فردية لكل وطني قادر ومسئولية "حكم" وأيضا مسئولية "معارضة" وفي الأخير 'مسئولية مجتمعية' بالنسبة للبلد ومواطنيه ككل "باعتبار أن هؤلاء هم الذين سيدفعون أو سيقبضون ثمن جميع التوجهات أيا كانت مساراتها رشيدة أم عمياء".

ويصبح المطلوب في نظر المؤلف هو.. "فهم التحديات التي يطرحها هذا المستقبل وطبيعة العصر الجديد ثم تفهم تكوين الجيل الذي يقف مباشرة على بابهما وما إذا كان لديه عدة الدخول أو انه يلزم إعدادها بها". وحتى يتم ذلك يرى المؤلف أن من المفترض أن تكون هذه المهمة مهمة جيلين، الجيل الأكبر هو "جيل الإمداد والتموين" بالاشتراك مع "جيل المعركة" نفسه، شريطة وجود الإحساس المشترك بالمسئولية وشريطة حسن عملية توزيع الأدوار. وفي غياب هذين الشرطين - نتيجة اتساع فجوة التفاهم بينهما - ومع احتكار الجيل الأكبر لمقاليد الأمور، لن يكون على جيل المعركة سوى الصدام من اجل استخلاص الممكن واعتبار أن المعركة هي معركتهم وحدهم من الألف إلى الياء. ويرجح واقع الحال في مصر كما كان يراه الكاتب أن هذه سوف تكون هي الصورة.

لم يستغرق الاستعراض الأكاديمي لأفكار علم الأجيال النظرية كثيرا من متن الكتاب. فالجيل علميا: "لا يمثل وحدة بيولوجية متعلقة بعدد سنوات عمر الإنسان... فالجانب العمري هو فقط احد أبعاد تحديد نقطة البداية ونقطة النهاية لكل جيل... ولذلك يقدر عمر الجيل بربع قرن من الزمان... ولكن ظاهرة الأجيال في تكونها وتعاقبها وتواصلها وصراعها وتناحرها هي أكثر تعقيدا من هذا.. فالجيل هو بالأساس وحدة اجتماعية-تاريخية... أي أن التجربة الاجتماعية التاريخية هي القاسم المشترك

بين أبناء جيل بعينه... [وتلك التجربة] هي التي تصنع وعي الجيل كما تؤثر على استعداداته النفسية من تفاؤل وتشاؤم أو من حماس وإحباط..."

## أسئلة المستقبل القريب؟

يرى الكاتب أن المستقبل القريب يطرح وبشدة على الأمة سؤال: هل تهيأنا بالفكر والفعل للقرن [والألفية] الجديدين؟ بل أن الخلفية الكامنة وراء هذا السؤال تتمثل أولاً في سؤالين آخرين: (1) إلى أي مدى شاركنا في التفاعلات والتراكمات التي مهدت للعصر الحديث؟ (2) وإلى أي مدى شاركنا في صياغة الإرهاصات التي دشنت العصر الجديد؟ ورغم توقع التباين الشاسع في إجاباتنا على هذه الأسئلة بين لا ونعم إلا أن إجابة الكاتب شخصياً جاءت "بنعم ثلاثية" تقابلها "لا" كبرى. ففي رأيه:

"مشاركتنا في التراكمات موجودة ولكنها سارت في خط هابط بالتدريج سواء كانت مساهمة في الحضارة أم في حركة التحرر أم في التنمية. ومشاركتنا في إرهاصات العصر الجديد محدودة بمحدودية وزننا في ميزان القوى العالمي وبمحدودية إنجازنا الديموقراطي الداخلي. أما تهيؤنا للقرن القادم فمحصور في دائرة المفكرين الأفراد وفي دائرة السياسيين الأفراد الذين يتذكرون من وقت لآخر تأثير بعض القرارات على الأوضاع المستقبلية. فالمستقبل يثير لدينا قدراً من الاهتمام الفردي ولم يصبح أساس لفكر جماعي ولا خطة قومية ولا تعبئة شعبية."

## ماذا يحمل لنا القرن الواحد وعشرين؟

ينبئ القرن الواحد وعشرين بأربعة تطورات كبرى تشكل تحديات للفكر والفعل لمن عقدوا العزم على ولوجه ككائنات وكيانات معتبرة. الأول: احتداد التنافس الاقتصادي بين الأمم والكتل على مستوى غير مسبوق. الثاني: وضعية وسائل الاعلام والثقافة بنفوذ اكبر للأكثر سيطرة على وسائل الاعلام العالمية وتغلغلا اوسع للثقافة المتسيدة. الثالث: تحدي إعادة صياغة المفاهيم وتغيير دلالات الألفاظ المستخدمة في تنظيم حياة المجتمعات والدول ومجتمع الدول. الرابع: إقامة الديموقراطية واحترام حقوق الإنسان.

## حال العالم وحالنا

يرى الكاتب إن ما يحدث في العالم اليوم هو اتخاذ خطوات كبرى من قبل الساعين لمواجهة التحدي بالاستجابة المناسبة. وهي خطوات أشبه بالثورات، حيث تشمل تغييرات كبيرة في النظم الاقتصادية والسياسية وليس مجرد إصلاحات ديكورية. أصبح المطروح هو تهيؤ الأمم بصورة علمية لمصيرها في المستقبل وسعيها لتعبئة طاقاتها ليأتي هذا المصير على النحو الذي ترضاه لا النحو الذي تخشاه، وهو ما لا يفترض إتمامه دون مشاركة جماعية من الناس.

أما بالنسبة لنا في مصر فيرى الكاتب إن الروح السارية في الشرايين المتصلبة للصراع السياسي الراهن عندنا هي روح تتراوح بين "الماضي" و"اللحظة العابرة". وحين يميل فرقاء الحياة السياسية المصرية لتناول القضايا الكبرى فغالبا ما يتخذ الأمر لديهم شكل البحث عن الأفضلية المجردة بين المطلقات مثل: المفاضلة بين القطاع العام والقطاع الخاص، والمفاضلة بين ثورة 1919 و ثورة 1952 والمفاضلة بين الإسلام والعلمانية، هذا بدلا من الرصد الدقيق لما نحن فيه الآن وتخطيط الانطلاق منه إلى وضع أفضل بصورة جماعية. ويخلص من هذا إلى أن ما ينبئ به لسان الحال حتى الآن هو أن مصر لم تنتهياً للدخول الوثائق للقرن الواحد وعشرين لأنها لم تقم بعد بصياغة وإعمال هيكل استجابتها لتحدياته.

## فماذا يا ترى يكون العمل؟

ورغم أن كاتب الكتاب 'غير مسئول' بالمعنى الوظيفي سواء في دوائر الحكومة المختصة أم في دوائر المعارضة، لكنه يقدم تصوره للإجابة لإعلاننا للمسئولية وليس إبراء للذمة، فيقول:

تواجه مهمة الإجابة المتكاملة على هذا السؤال العريض ثلاث تحديات:

1. التغييرات العالمية السريعة التي سوف تركز إلى أسفل كل الدول والشعوب بطيئة الحركة.
2. الإفلاس الفكري والعجز الحركي الذي تبديه القوى السياسية السائدة في مصر اليوم
3. الأناية الفاتلة التي يفرضها على شباب مصر ذلك الجيل المحتكر المترع عنوة على مقاعد القوة السياسية والمستأثر لنفسه تماما بصندوق الثروة الاقتصادية

□□□□□ □□□ □□ □ "□□□□□□□□□□" □□□ □□ "□□□□□□□□□□"

## المستقبل

يطلق الدكتور احمد عبد الله أوصافا عدة على الجيل المناط به صياغة مشروع المستقبل: جيل "المعركة"، وجيل "المهمة"، والجيل "الحرث"، وجيل "البناء" أو "الانكفاء" الذي لم يتحدد بعد أي الكلمتين سوف تلتصق به.

يرى الكاتب إن هذا الجيل الاجتماعي-التاريخي الواحد يتكون من جيلين عمريين! يغطيان الفترة التاريخية من 1946 حتى 1982، حيث ولد أكبر أبنائه عام 1946، ودخل القرن الواحد وعشرين وعمره حوالي 54 أو 55 عاما؛ بينما ولد اصغر أبناء هذا الجيل عام 1982، ودخل القرن الواحد وعشرين وعمره 18 عاما تسمح له بالتصويت في الانتخابات للمرة الأولى في حياته وفي حياة البلد في القرن الجديد. ورغم أن تاريخ بدء هذا الجيل شهد انتفاضة 1946 الوطنية التي حاولت استكمال ما لم تستطع تحقيقه ثورة 1919، وتاريخ نهايته شهد اغتيال الرئيس أنور السادات، إلا أن الأحداث الفارقة التي ساهمت في تكوين هذا الجيل لم تكن هذين الحدثين البارزين رغم أهمية ما ترتب عليهما في الواقع الذي عايشه أبناء هذا الجيل. الأحداث الفارقة في نظر الكاتب جاءت في أعوام 1952، 1967، 1974، أي ثورة يوليو،

وهزيمة 67، وبدء مرحلة الانفتاح. مع الاعتراف بأحداث أخرى خلال هذه الفترة أثرت على وعي ونفسية الجيل منها أزمة مارس 1954 التي انتهت معها عصر الليبرالية السياسية، وعام 1956 حينما اشتعلت أحاسيس العزة الوطنية بتأميم قناة السويس والتصدي للعدوان الثلاثي، وعام 1961 بقوانين يوليو الاشتراكية والتغييرات الاجتماعية الأوسع، وعام 1968 وانتفاضة الطلبة ضد نتائج الهزيمة والانتفاضات الطلابية عامي 1972 و 1973 لنفس الأسباب، وحرب أكتوبر 1973 والشعور بالقدرة على التصدي، وانتفاضة الخبز عام 1977 تحت وطأة سياسة الانفتاح، وأخيرا اغتيال فارس العصر الجديد عام 1981.

إلا أن الكاتب يعترف أيضا بوجود تمايزات في الوعي والتكوين النفسي بين أبناء جيل يمتد عمر أفرادها ما بين 55 عاما إلى 18 عاما (بعرض 37 عاما)، طبقا لمستوى تعرضهما للحدث إما "شهادة" وإما "ميراثا"، ولكن تلك التمايزات في رأيه أساس فارق في الدرجة لا يمنع الوحدة النسبية للوعي والتكوين النفسي لأبناء الجيل الواحد وإن سمح هذا الفارق باختلاف ردود أفعالهم إزاء الأحداث. ويستعرض الكاتب بشكل مكثف اثر تلك الأحداث على هذا الجيل وما مارسه جيل الكبار عليه ليصبح في النهاية جيلا "محروقا"/"مشروخا" (حرقا وشرخ هزيمة 67) و/ "مخوقا" (غياب وجودهم في مواقع المسؤولية العليا والوسيطه في الحكومة والقطاع العام والخاص والأحزاب السياسية أو باختصار ضيق الفرصة "المادية" الاقتصادية والسياسية أمام الجيل) و/مقسوما/ غير منتمي / ذو معاييب كثيرة (ضعف الثقافة والعلم والمهارة المهنية والتعصب الفكري والتطرف السلوكي - ظواهر العنف والإرهاب). ويبقى السؤال: هل يستطيع هذا الجيل إن يكون جيل الخلاص المحتمل لمسئولية دخول بلده إلى قرن جديد وعصر جديد؟

يجيب الكاتب على هذا السؤال "بنعم" ... رغم كل ذلك. ويقدم مبرراته:

1. سبب موضوعي ذاتي: ليس إمام الجيل أي اختيار آخر.. الجيل الأكبر جيل مدبر ولا بد أن أفراداه ملاقون ربهم يوما في تتابع متسارع بفعل حقائق البيولوجيا.
  2. سبب موضوعي: صنابير تسريب طاقات الجيل قد قاربت على الانغلاق. باب الهجرة يضيق وسفن ابن زياد تحترق وليس أمام الجيل سوى حل مشاكل البلاد أو الاحتراق داخلها.
  3. سبب ذاتي: بعض أبناء هذا الجيل قد شب عن الطوق: سواء من رفض الهجرة أو من هاجر ثم عاد ليبقى. فمنهم من نضج في الفكر خصوصا من تلقى منهم تدريبا أكاديميا عاليا داخل أو خارج البلد. ومنهم من نضج في الحركة بعد أن بدأ نشاطه السياسي ديماجوجيا أو دوجمائيا أو متشدد في السلوك (مؤمنا بالعنف أو لجأ إليه) ثم عركتهم التجارب فأنضجتهم.
- لكن إجابة السؤال لم تكتمل ولن تكتمل بكلمة "نعم" أم "لا"، وإنما تكون الإجابة بفعل الإسهام في رسم رتوش مشروع الجيل.

## خارطة الطريق

يرسم الكاتب في نهاية كتابه خارطة طريق تحدد معالم درب الولوج إلى المستقبل والاستجابة لتحديات القرن الواحد وعشرين، ليس إبراء لذمته ولكن تحملا لمسئوليته كما قال باعتباره فردا مفكرا وطنيا منتما. فالمؤلف يرى في تاريخ مصر أربعة مشروعات متميزة بينها ما صنع الحداد، لكنها تتفق في كونها إرث الأجيال السابقة: المشروع الليبرالي، والمشروع الإسلامي، والمشروع الاشتراكي أو بالدقة المشروع الاشتراكي الماركسي أو الشيوعي، والمشروع القومي (أو بالدقة الناصري أو الاشتراكي الناصري). وبعد مناقشة موجزة بل وخاطفة من وجهة نظره لنشأة وأفكار ومميزات كل مشروع وجوانبه السلبية يخلص الدكتور أحمد عبد الله إلى أنه يغلب على فكر هذه المشروعات جميعها قدر من السلفية والنصوصية والتغني بأمجاد الماضي. ولكن هذه المشروعات متواجدة من الناحية الفكرية وأنصارها متواجدون من الناحية العملية. بل أن بعض هؤلاء الأنصار قد تعرض للكثير من المحن دون أن يتنازل عن رأيه، بل إن هذه المشروعات قد جذبت إليها أجيال الشباب بهذه الدرجة أو تلك. ويخلص المؤلف إلى تقدير أن الصورة الحالية هي إن المشروع الإسلامي هو الأكثر جذبا نسبيا للجيل الصغير من أبناء الصفوة السياسية النشطة، بينما المشروع الليبرالي هو الأضعف جذبا، وبين هذا وذاك يقف مشروع اليسار الاشتراكي والقومي (الناصرى).

لكن يبقى أن هذه مشروعات "سلفية" أكثر منها مشروعات "مستقبلية"، وإنها مشروعات "الجيل الأكبر" أكثر منها مشروعات "الجيل الأصغر". فهل يستطيع الجيل "الخرج" أو الجيل "الشاب" أن يقدم مشروعا آخر أو مشروعات أخرى أكثر ارتباطا بتجربته وعقليته ووجدانه، وأكثر مستقبلية وأكثر تعبيرا عن تحمله لمسئوليته التاريخية عن هذا المستقبل.

يجيب الكاتب "نعم" على ثلاثة مستويات:

أولا: إن تحتفظ العناصر الشابة في كل مشروع باسم مشروعها، وإن ترفع نفس رأيه، وإن تبقى داخل إطاره العام، على أن تعتبر نفسها مسئولة تاريخيا عن تقديم نسخة "حديثة" من المشروع أكثر ملائمة للحاضر والمستقبل وفيها ملامح اجتهاد هذا الجيل.

ثانيا: أن تسعى هذه العناصر الشابة إلى معاملة نفسها "كجيل واحد" وإن اختلفت مشروعاتها. أي تعتبر نفسها مسئولة عن إيجاد "لغة مشتركة" للتخاطب والتصارع والتفاهم بين أصحاب مختلف المشروعات. يرى الكاتب في "أولا" و"ثانيا" تحديان كبيران لإثبات جدارة هذا الجيل من عدمه، وعليهما يتوقف الكثير من نجاح أو إخفاق الوطن والجيل معا في مواجهة تحدي المستقبل.

أما ثالثا: فهذا المستوى الثالث لأداء الجيل الحرج فهو مستوى أعلى وأعدد وأكثر تحديا. إنه مستوى صنع "مشروع جديد"، مشروع أكثر استيعابا لتجربة الأمة وتراثها وحقائق العالم الذي نعيش فيه. يرى الكاتب إن صفة الجديد أو جدارة المشروع لأن يكون جديدا تنبع أساسا من قدرة أصحابه على "التلخيص"

أو "تخليص الإبريز" بتعبير الشيخ رفاعة الطهطاوي، ويقصد بها القدرة على هضم مجمل تراث الأمة وتجربتها التاريخية ثم استخلاصهم من ذلك العناصر التي ستوضع في بوتقة التفاعل مع حقائق العصر

## السؤال الأخير

يأتي في نهاية الكتاب آخر أسئلة الكاتب من سلسلة الأسئلة التي وجهها إلينا ولنفسه: هل يقدم "الجيل الحرج" في مصر في القرن الواحد وعشرين على قبول هذا التحدي؟

## المحتويات

2	في ذكرى احمد عبد الله رزة.....
2	روجر أوين.....
2	الأهرام ويكلي.....
11	من التآمر الى المواجهة: الاسلاميون والدولة في مصر.....
13	هجمات بلا تمييز.....
14	الطريق الثالث.....
16	مصر قبل وبعد 11 سبتمبر 2001:.....
18	مقدمة:.....
19	الاقتصاد.....
23	المجتمع.....
25	العنف.....
26	الفساد.....
31	الطائفية.....
36	النظام السياسي.....
36	السياسة الدولية.....
49	السياسة الداخلية.....
52	القمع والانتكاس.....
57	التصحيح واعادة الهيكلة.....
62	الخلافة واعتلاء السلطة.....
66	قضية الأجيال، تحدي الشباب المصري عبر قرنين.....
67	أسئلة المستقبل القريب؟.....
67	ماذا يحمل لنا القرن الواحد وعشرين؟.....
67	حال العالم وحالنا.....
68	فماذا يا ترى يكون العمل؟.....
68	الجيل "الحرج" أو جيل "المعركة"، أو جيل مشروع المستقبل.....
70	خارطة الطريق.....
71	السؤال الأخير.....